

الحياة الإنسانية

في

الأشعار الجاهلية

د. عبد الغني زيتوني



لا ريب لدينا في أن الشعراء الجاهليين كانوا أكثر الأفراد حينذاك شعوراً وإحساساً بالزمن، كما كانوا أكثر قدرة على التعبير الصادق عن رؤيتهم الحقيقية للحياة، ولما يبعثه الزمن الضيق في نفوسهم من أحاسيس وانفعالات، منطلقين، في ذلك كله من إدراكهم للظروف المعيشية التي تحيط بهم، وتُلقي بظلالها على مجرى حياتهم، ومتأثرين بنظرة المجتمع عامة تجاه الزمن؛ ومن هنا استطاعوا أن يعكسوا أيضاً حالة الإنسان العربي تجاه الزمن ومراحل العمر. وسيبدو لنا ذلك جلياً في حديثهم عن الشباب، والمشييب، وفي رؤيتهم لغاية الحياة التي كانوا يطمحون إليها..

١ - الشباب :

لعلنا لا نجانِب الحق إذا قلنا ، مستندين في ذلك إلى نصوص شعرية لاحقة : إنَّ إحساس الإنسان العربي المفرط بالزمن ، في أكثر الأحيان ، وشعوره الشديد بأنه مقيد به ؛ ومن ثَمَّ قناعته بأنه لا حيلة له في التخلص من النهاية الحتمية المتمثلة في الموت ، كل ذلك جعله يرى في الشباب ذروة الحياة ؛ ففيه تنفجر قوى الجسد ، وتتأجج المشاعر والأحاسيس ، ويمر الجسم كله بعنفوان الفتوة وحيويتها .

وقد زاد في أهمية الشباب لدى الفرد الجاهلي ، أن البيئة التي يعيش فيها ، وظروف المعيشة التي تحيط به ، والحياة القبلية التي يحياها بغزواتها وغاراتها ، تطلبت منه قوة جسدية لمواجهة التغلب عليها ، كي يتمكن من الحفاظ على بقائه واستمرار وجوده ، فضلاً عن أنه كان يجد في الشباب ، غالباً ، مجالاً لتحقيق رغائبه في الحياة ، وقدرة على تنفيذ كثير من آماله وأمانيه .

وبذلك هيا الشبابُ للفرد القوة لخوض الحروب ، ومقاتلة العدو ، والصبر على شدائد الحياة في البادية ، كما هيا له أسباب الفتوة القادرة على صروب اللهو ، وشتى متع الحياة . وربما كان هذان الأمران منطلق الأعشى في تصويره للشباب تارة بالرَّمح القويم ، ذي السَّنان الحاذق اللامع ، الذي لا يُشكُّ في قدرته على اختراق الأجسام والنفاذ فيها . وتصويره تارة ثانية بإبناء الذهب الذي جهد صانعه في صياغته ، فاكتمل بهاء ورونقاً ، وغدا وسيلة ممتعة إلى تهلِّ الملذات ^(١) :

بينما المرءُ كالرؤيى ذي الجُبِّ سِـمَاءٍ مَّضِلُّحُ التَّنْقِيفِ ^(٢)
أو إناء النُّصارِ لا حمءُ القَبِّ سُنُّ وَدَارَى صُدُوعُهُ بِالكَتِيفِ ^(٣)

رَدَّ دَهْرُهُ الْمُضَلَّلَ حَتَّى عَادَ مِنْ بَعْدِ مَشْيِهِ لِلدَّلِيفِ ^(٤)
ويمكننا أن نستوحي من رؤية الشعراء للشباب عامة أنهم كانوا يعدونه خلاصة العمر وزهوه ؛ فهم يدأبون دائماً في إيراد صور حافلة بمسراته وأفراحه ،

سواء أكانوا في مرحلة الفتوة أم كانوا في مرحلة نالية لها . ففي المرحلة الأولى نجدهم يفخرون بما يتمتعون به من قوة كبيرة ، تجعلهم فرساناً أشداء في المعارك ومجابهة الأخطار ، ويتباهون بما يارسون في حياتهم من ملذّات ، تشيع أحاسيسهم المتوثبة . وفي المرحلة الثانية نجدهم يمثلون حسرة وألماً على ماضى من عهد اللذائذ والمسرات ، ويكون ديدنهم حينذاك أن يسترجعوا في مخيلاتهم صور الشباب الأفل ، والنعيم الزائل .

- أولاً: عهد الفتوة والشباب :

إنّ من يبحث عن صورة الإنسان في الشعر الجاهلي لا بد أن يلحظ أمراً ذا دلالة مهمة على موقف الفرد من الحياة ، ومن الأسباب التي تربطه بالبيئة والمجتمع ، والتي في مقدمتها القوة ، هذا الأمر هو عدم اهتمام الشاعر بالحديث عن طفولته المبكرة ؛ إذ لا نكاد نجد نصّاً شعرياً يصوّر فيه الشاعر نفسه طفلاً ، يرتع ويلعب مع لداته وأقرانه ، وينعم برعاية الوالدين وحنانها ، وإنما يطالعا مباشرة ، لدى حديثه الذاتي ، شابّاً يافعاً ، وفتى قوياً ، وكأنه بذلك يريد أن يوحي إلينا أن عمره الحقيقي يبدأ بسن الشباب ، لا بزمن الولادة .

وربما كان سبب عزوف الشاعر عن ذكر طفولته يرجع إلى أنه لا يريد أن يصف نفسه إبان ضعفها وعدم قدرتها على الاعتماد على ذاتها ، في عالم يتطلب القوة والمقدرة في كلّ منحي من مناحيه . كما يُخيّل إلينا أن ثمة سبباً آخر أيضاً ، في غياب مرحلة الطفولة من وصف الشاعر لحياته ، وهو أن جُلّ فخره بنفسه إنما كان ينصبُّ على مظاهر الشدة والقوة والبأس لديه من جهة ، وينصبُّ كذلك على مباحج الحياة ، وفي طليعتها شرب الخمر واللهو مع النساء ، من جهة ثانية ، ومن طبيعة الأمور ألا يتحقّق له ذلك في الطفولة والصغر ، فكان قميناً به أن يعدّ فتوّته منطلقاً لفخره ، ويحمل نشأته الأولى التي تكاد ينعدم فيها كلّ ما يبعث على الفخر والمباهاة .

وينبغي أن يكون بيننا أن لفظ الفتى حين يرد في الشعر يدلُّ على الشباب غالبًا، وقد تُضاف إليه معاني خلقية تقترب به، وفي مقدمتها الشجاعة والكرم، وهذا ما ألح إليه علماء اللغة في أثناء حديثهم عن هذا اللفظ^(٥).

وانطلاقًا من المفهوم السابق للشباب والفتوة نجد طرفة بن العبد يفخر بنفسه، فهو الفتى القوي الذي يلبي النداء في الملمات، ويبادر إلى غوث الآخرين ومعونتهم، وهو الفتى الذي يجمع بين صواب الرأي في المشورة، وحسن المناداة في الشراب^(٦):

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا: مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنَّنِي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّغِدِ
وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التَّلَاعِ خَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَشْتَرِفِدِ الْقَوْمُ أَزْفِدِ
فَإِنْ تَبَغْنِي فِي خَلْقَةِ الْقَوْمِ تَلْقَنِي وَإِنْ تَقْتَنِصْنِي فِي الْخَوَانِبِ تَضْطَدِ

وعهد الشباب لدى زهير بن مسعود الضُّبِّي حافلٌ بمباهج الفتوة، ومسرات الحياة التي تبعثها قوة الصبا وعنفوانه، ومقترن في نفسه بمعاقرة الذَّنان، ومقارعة الأبطال، ومغازلة الغانيات، والقدرة على تفريج الهموم وإزالة الأحزان^(٧):

فَلَرُبَّ فِتْيَانٍ صَبَحَتْهُمْ مِنْ عَاتِقِ صَهْبَاءٍ فِي الْحَزِينِ^(٨)
عَانِيَّةٌ تُضْطَبِي الْحَلِيمَ إِذَا دَارَتْ أَكْفُ الْقَوْمِ بِالْكَأْسِ^(٩)
وَمَنَاجِدٍ بَطَلٍ دَبِثْتُ لَهُ تَحْتَ الْعُبَارِ بِطَغْنَةٍ خَلَسِ^(١٠)
وَكَوَاعِبٍ هَبَّتْ مُحْضَرَّةَ الْـ أَيْدَانٍ مِنْ بَيْضٍ وَمِنْ لُغْسِ^(١١)
حُورٍ نَوَاعِمٍ قَدْ هَوَتْ بِهَا وَشَقِيتُ مِنْ لَذَائِهَا نَفْسِي^(١٢)
وَجَسِيمٍ هَمٍّ قَدْ رَحَلْتُ لَهُ حَتَّى تَثُوبَ بِلَيْلَةٍ عَنِّي
فَفَرَجْتُ مَهْمِي بِالْعَزِيمَةِ إِنَّ الْعَدَّ زَمَّ يُفَرِّجُ غَمَّةَ اللَّبِيسِ

إن أهم مظاهر الفتوة والشباب التي تبرز في الشعر، والتي تناولها الشعراء مادة لوصف تلك المرحلة من حياتهم، هي الشجاعة والخمر والمرأة. ويتفاوت الشعراء في تفصيل تلك المظاهر، أو الإلحاح على بعضها دون بعضها الآخر، بيد أن معظمهم يتفوق على أنها تتمثل في صور تعكس مشاهد حيوية من عمر الإنسان، وتعتبر عن عهد الفتوة، وقلما وجدناها تعبر عن غير هذا العهد. وقد لخص لنا سُلَيْمِيُّ بن عُوَيْة تلك المظاهر جميعا في هذه اللوحة الشعرية البديعة (١٣):

لَا يَتَعَدَّنْ عَهْدُ الشَّبَابِ وَلَا لَذَاتِهِ وَنَبَاتِهِ النَّضْرُ
وَالْمُرَشَقَاتُ مِنَ الْخُدُودِ كَأَيْمَانِ الضَّمَامِ صَوَاحِبِ الْقَطْرِ (١٤)
وَطِرَادُ خَيْلٍ مِثْلَهَا التَّقْتَا لِحَفِيفَةِ، وَمَقَاعِدُ الْخُمْرِ (١٥)
وَكَانَ عَلَقَمَةُ بْنُ عَبْدِ قَدُورٍ لَنَا فِي شِعْرِهِ لَذَاتُ الشَّبَابِ تُنَالُ مِنْ مَجَالِسِ
الشَّرْبِ، وَغَنَاءِ الْقِيَانِ، فَضْلًا عَنْ خَوْضِ الْمَعَارِكِ وَمَقَارَعَةِ الْأَقْرَانِ (١٦). وَالْحَجَّ
أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ فِي حَدِيثِهِ عَنْ فَتَوْتِهِ، فِي بَعْضِ شِعْرِهِ، عَلَى اللَّهْوِ بِالْمَرْأَةِ الْأَنْسَةِ
الْعُرُوبِ، الَّتِي تَفْعَلُ فِي نَفْسِ الْفَتَى فَعْلَ الْخُمْرِ الصَّهْبَاءِ الْمَعْتَقَةِ (١٧). وَانْتَهَى
حُبُّ الْأَعَشَى لِلرَّاحِ، وَمَعَاقِرَةُ الدَّنَانِ إِلَى أَنْ عَدَّهَا أَقْصَى لَذَائِذِهِ فِي عَهْدِ
الشَّبَابِ، وَلَا سِوَاهَا إِذَا كَانَ نَدْمَاؤُهُ فِيهَا فَتِيَّةَ كَسِيفٍ الْهَنْدِ عَنفَوَانًا وَقُوَّةَ (١٨).

ولم يقتصر عمرو بن قَعَّاس على مظاهر الفتوة السابقة، وإنما أضاف إليها مظاهر أخرى، تتضمن خيالة الشباب وكبرياءه وسخاءه. وذلك كله نجده لديه في هذه اللوحة الشعرية، التي قل أن نرى نظيرًا لها في التعبير عن رؤية الإنسان العربي لتدفق الشباب وحيويته وتوثبه وزهوه (١٩):

أَلَا بَكَرَ الْعَوَاذِلُ وَاسْتَمِثْتُ وهل أنا خَالِدٌ إِمَّا صَحَوْتُ (٢٠)
إِذَا مَا فَاتَنِي لَحْمٌ غَرِيصٌ قَطَعْتُ ذِرَاعَ بَكْرِي فَاشْتَوَيْتُ

وَكُنْتُ إِذَا أَرَى زَقَاً مَرِيضاً يُنَاحُ عَلَى جَنَازَتِهِ بِكَيْتٍ (٢١)
 أَرْجُلُ لَيْتِي وَأَجْرُ ثَوْبِي وَنَحْمِلُ شِكْنِي أَفْقُ كُمَيْتٍ (٢٢)
 وَأَمْسِي فِي دِيَارِ بَنِي غُطَيْفٍ إِذَا مَا سَاءَ نِي أَمْرُ أُبَيْتٍ
 وَسَوْدَاءِ الْمَحَاجِرِ الْفِ صَحْرِ تَلَا حَظَنِي التَّطَلُّعُ قَدْ رَمَيْتُ (٢٣)
 وَتَأْمُورِ هَرَقْتُ وَلَيْسَ خَمْرًا وَحَبَّةٍ غَيْرِ طَاحِنَةٍ قَضَيْتُ (٢٤)
 وَنَحْمٍ لَمْ يَذُقْهُ النَّاسُ قَبْلِي أَكَلْتُ عَلَى خِلَاءٍ وَانْتَقَيْتُ (٢٥)
 وَبَرَكَ قَدْ أَثَرْتُ بِمَشْرِفِي إِذَا مَا رَأَى عَنْ عُقْرِ رَمَيْتُ
 مَتَى مَا يَأْتِينِي يَوْمِي تَجِدُنِي شُفَيْتُ مِنَ اللَّذَازَةِ وَاشْتَقَيْتُ (٢٦)

وكثرة حديث الشعراء عن متع الفتوة ومباهجها لا تعني أنهم كانوا يشيدون بالفرد الذي ينكب على الملذات انكباباً تاماً، ويتفرغ دائماً لمجالس الشرب ومغازلة الحسان، غير آبه بقضايا قومه، وشئون قبيلته، ولا ملتفت إلى السعي لبلوغ منزلة السادة والنبلاء والأشراف، فهذا الفرد يكون شأنه شأن طرفة بن العبد حين أدمن شرب الخمرة، وجعلها همه الأكبر، وغايته القصوى، منفقاً في سبيلها كل ما يملك من مال، فكانت عاقبته أن نبذته القبيلة، وأهملته إهمالاً كاملاً (٢٧):

وَمَا رَأَى تَفْرَاقَ الْخُمُورِ وَلَسْتُ وَيَنْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِّي
 إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعْبَدِ

وأغلب الظن أن الشباب الحق، في رأي الشاعر الجاهلي، هو الذي يجمع بين تحمل المسؤولية القبلية أو الذاتية، وبين الانطلاق في ملاعب الصبا، والجري وراء الملذات. وهذا ما وجده الأعشى متحققاً في إياس بن قبيصة،

حين قارن صورته الحيويّة المُتَوَبِّة، في مجالي الشجاعة واللهو، بصورة العاجز الواهن الذي فقد الشباب، ففقد به العزيمة والقوة، وأضحى يؤثر الراحة والنوم في البيت على نهب المتع وخوض المعامع والحروب:

أَخَو النَّجْدَاتِ لَا يَكْبُو لَضُرٍّ	وَلَا مَرَحٍ إِذَا مَا الْخَيْرُ دَامَا
لَهُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لِعَابِ خَوْدٍ	وَيَوْمٌ يَسْتَمِي الْقَحَمَ الْعِظَامَا ^(٢٩)
إِذَا مَا عَاجِزٌ رَثْتُ قَوَاهُ	رَأَى وَطْءَ الْفَرَاشِ لَهُ فَنَامَا
كَفَاهُ الْحَرْبَ، إِذْ لَقِحتْ، إِيَّاسُ	فَاعْلَى عَنْ نَهَارِقِهِ فَقَامَا ^(٣٠)
إِذَا مَا سَارَ نَحْوَ بِلَادِ قَوْمٍ	أَزَارَهُمُ الْمَنِيَّةُ وَالْجِهَامَا
كَصَدْرِ السَّيْفِ أَخْلَصَهُ صِقَالُ	إِذَا مَا هُزَّ مَشْهُورًا حُامَا

وعلى هذا فإن عهد الفتوة والشباب، كما صورته لنا الشعر، كان فسحة العمر لدى الإنسان العربي، نهل فيها فنون الملذات، وارتوى من معينها رحيق الصُّبا، مختالاً بفروسيته وشجاعته، ومعتدّاً بقوته ومقدرته، وقد عَدَّ هذا العهدَ زهرةَ عمره وذروةَ حياته. ومن هنا يمكننا القول إن الشباب هو العهد الوحيد من العمر الذي كان فيه الشاعر الجاهلي راضياً عن الزمن، قانعاً به، من غير سخط ولا تدمر في أكثر أحيانه ومعظم حالاته.

ثانياً، بكاء الشباب:

لا ريب في أن الأهمية الكبيرة للشباب لدى الإنسان العربي، كما برزت جلية من الأشعار السالفة، كانت غالباً تبعث في نفسه الحسرة والأسى والحزن، عند شعوره بتسرب الشباب وانقضاء عهد الفتوة. فلم يكن مستغرباً بعد ذلك أن يعبر في شعره عما اختلج في نفسه من مشاعر، وما أحدث فيها ألم الفقد ومرارة الفراق.

هذا ما كان من شأن عدي بن زيد فيما أبداه من أسى عميق ولوعة حرى لفراقه الشباب ؛ ذلك الذي غدَّ السير، وأسرع بالرحيل ، غير مبالي بجزع الشاعر وبكائه ؛ ليقينه بأنه فراق لا لقاء بعده ، ورحيل لا أوبة له (٣١) :

بان الشبابُ فما له مَرْدُودُ	وعليٌّ من سَمَةِ الكبير سُهوْدُ
شيبَ برأسي واضحٌ أُعْقِبْتُهُ	من بعدِ آخرَ بانٍ وهوَ حَمِيدُ
وأرى سوادَ الرأسِ يُنْقِصُهُ البَلُّ	والشَّيبُ عن طولِ الحياةِ يَزِيدُ
ولقد بكيتُ على الشبابِ لَوَ أَنَّهُ	كان البكاءُ به عليٌّ يعودُ
ليس الشبابُ وإنْ جَزَعْتَ بِراجِعِ	أبدًا، وليس له عليك مُعيدُ

وشبه بهذا ما كان من تلهف عمرو بن قميئة على ضياع أيام شبابه الأقلة ؛ إذ أصابه بفقدِها أمر عظيم وخطب جلل ، يتمثلان في ذهاب صحة البدن ، ونضارة الوجه ، وطيب العيش ، وقوة الروح ، فيا حسرة ما بعدها حسرة ، ويا لوعة تزداد حرقه كلما عَنَّ ذكر الصُّبا على البال ، وخطَرَ عهد الفتوة في الخيال (٣٢) :

يا لَهْفَ نفسي على الشبابِ، ولم	أَفْقِدْ به، إِذْ فَقَدْتُهُ، أَمَّا (٣٣)
قد كنتُ في مَيِّقَةٍ أُسْرُ بها	أَمْنَعُ ضَمِيمِي وَأُهَيِّطُ الْعُصَا (٣٤)
وَأَسْحَبُ الرِّيطَ والبرودَ إلى	أدنَى تجاري وَأَنْقُضُ اللَّمَمَا (٣٥)

وإذا كانت مظاهر الشباب ومتعه التي تُجَلَّى في الشجاعة والخمرة والمرأة باعثًا لفخر الشاعر بنفسه ، فإن تلك المظاهر نفسها تدفعه إلى الحسرة والأسى ، وتزيد من حزنه على انحسار الشباب الذي كان يوفرها له ، ويجعل لذاتها أقرب مأخذًا ، وأيسر منالاً .

وهذا ماكانت عليه حال أبي كبير الهذلي حين رحل عنه الشباب ، ولم يتبق منه

إلا ذكرى لهو مع النساء الغواني الفاتنات، وشجاعته في قيادة الفرسان واختراق صفوف الأعداء؛ وقد عبّر عن حاله هذه في قوله، مخاطبا ابنته زُهَيْرَة (٣٦):

أُزْهِرَ هل عن شَيْبَةٍ من مَعْدَلٍ أم لا سبيلَ إلى الشَّبَابِ الأوَّلِ؟
 أم لا سبيلَ إلى الشَّبَابِ، وذكرُهُ أنْهَى إِلَيَّ من الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
 ذهب الشَّبَابُ وفات مِنِّي ماضِي ونَضَا، زُهَيْرُ، كَرِيهِي وَتَبْطَلِ
 وصَحَوْتُ عن ذكر الغواني وانتهى عُمْرِي وَأَنْكَرْتُ الْغَدَاةَ تَقْتَلِ
 أُزْهِرُ إِنْ يَنْسِبِ الْقَدْأَلُ فَإِنِّي رَبِّ هَبْضِلْ مَرِيْسَ لَفَقْتُ يَهْضَلِ (٣٧)
 فَلَفَقْتُ بَيْنَهُمْ لَغَيْرِ هَوَادَةٍ إِلَّا لَسْفُكٍ لِلذَّمَاءِ مُحَلِّ (٣٨)
 حَتَّى رَأَيْتُ دِمَاءَهُمْ تَغْشَاهُمْ وَيُقَلُّ سَيْفٌ بَيْنَهُمْ لَمْ يُنْسَلِ (٣٩)

واقتنص الأسود بن يَغْفَرُ صورة بارعة للشباب حي جعله ثوبًا جديدًا، يرتديه الإنسان مدة من الزمن، ثم سرعان ما يتمزق إلى قطع متفرقة، وذلك عندما تلوح نُذُرُ الشيب في الرأس، ويدبُّ الوهن في البدن، وتكون النتيجة فقدان ضروب اللهو، وفي مقدمتها مغازلة الفاتنات الحسان اللواتي من دأبهن الاحتفال بالشباب، وإلا زوارر عمَّن اشتعل رأسه شيبًا وداهمه الكبر (٤٠):

لَهَوْتُ بِرِبَالِ الشَّبَابِ مَلَاوَةً فَأَصْبَحَ سِرْبَالُ الشَّبَابِ شَبَارِقًا (٤١)
 فَأَصْبَحَ يَبْضَاتُ الْخُدُورِ قَدْ اجْتَوَتْ لِدَائِي وَمِشْنَنَ النَّاشِئِينَ الْغَرَانِقَا (٤٢)

وشكا سلامة بن جندل شكوى حارة من الانقضاء السريع لشبابه، وغدت ذكراه الأقلة في ذهنه مقترنة بالأجناد السامية، والأفعال الحميدة، واللذائذ

المتعة، فقد امتلأت تلك المرحلة نشاطاً وحيوية، إذ إنَّ قسماً منها كان يُقضى في مجالي الجِدِّ واللَّهو، وقسماً آخر كان يُستغرق في المعارك والحروب^(٤٣):

أودى الشَّبَابُ حميداً ذو التعاجيب	أودى وذلك شأؤ غير مَطْلُوبٍ
ولَّى حثيثاً وهذا الشَّيْبُ يطلُبُهُ	لو كان يُدِرُّكُهُ رُكْضُ البِغَاقِيبِ ^(٤٤)
أودى الشَّبَابُ الذي مجدَّ عواقِبُهُ	فيه نلَّدٌ ولا لَذَاتٍ للشَّيْبِ
يومانٍ: يومٌ مقاماتٍ وأنديَّةٍ	ويومٌ سيرٍ إلى الأعداءِ ثأوِيبٍ ^(٤٥)

وعلى ذلك فإنَّ الشعراء، في موقفهم من الحياة، كانوا يرون في الشباب زمناً من العمر، تتحقق لهم فيه ممارسة فعلية لرغائهم السائدة في مواقع الحياة القبلية، متمثلة حيناً في الشجاعة وبعض القيم الخلقية الأخرى، وحيناً آخر في نهل المتع والارتواء من اللذائذ المتاحة حينذاك.

ولم يكن بدعاً منهم بعد ذلك أن ييکوا ذلك الزمن، ويعذوه، مهما طال، أمداً قصيراً، مرَّ بهم سريعاً، ورحل عنهم رحيلاً أبدياً. وكان معظمهم يتنطلق في نظراته إلى الشباب من الواقع الحقيقي الذي عاشه، ومن التجربة الشخصية التي قام بها هو نفسه، ولذلك جاءت أشعار هؤلاء، كشأنها في أكثر الموضوعات الأخرى، مستندة إلى المشاهدة الحسية، وبعيدة، في الوقت نفسه، عن الإغراق في تزويق الخيال وتحليقاته، وسنجد أن الأمر نفسه ينطبق على موقفهم من الشيخوخة ورؤيتهم لها.

٢ - المشيب والشيخوخة :

بعد أن بيَّن لنا الشعر موقف الإنسان العربي من الشباب الذي كان يعدّه جِلة القوة ونعيم العمر، فإننا لا نعجب أن نجده في مرحلة المشيب والشيخوخة يتخذ

موقفًا آخر، يختلف عن الموقف الأول ويناقضه .

فإذا كنا قد رأينا في عهد الفتوة يمثل بهجة وقوة وعنفوانًا، ويندفع إلى العب من فنون الملهذات، مفتخرًا بذلك أشد الفخر، ومزهوًا به أعظم الزهو، فإن الشعر يظهره لنا في هذا العهد أقرب إلى الاكتئاب والأسى منه إلى الفرح والأمل، وأدنى إلى الضعف والعجز منه إلى القوة والاقتدار، غير متبق له إلا ذكريات الشباب الغابر يسترجعها، ويكون ديدنه فيها الحديث عما حقق من أمجاد، وعما أترع من لذائذ . فإن طال به العمر كثيرًا، أو أناخ عليه الكبر بكلكله الضخم، نزح في أغلب الأحيان، إلى الملل من الحياة، والزهد في البقاء، والرغبة في الموت للخلاص من مذلة الضعف وهوانه .

ولا ريب في أن الشعراء، بما طبعوا عليه من رهافة الحس وشفافية الشعور، أكثر تنبهاً لمرور الزمن، وأعمق إدراكًا بحلول المشيب والشيخوخة، فكان أن عبروا عن إحساسهم وشعورهم أصدق تعبير، مقدّمين لنا بذلك صورة شاملة عن رؤية الإنسان العربي لعهد كبره وضعفه، سواء أكان ذلك في أثناء حديثهم عن النفور من المشيب، أم في كلامهم عن هاجس الشيخوخة، أم في تصويرهم لمشاهد ضعف الكبر وحالاته .

ـ أولاً، المشيب :

لقد ألمحنا، من قبل، إلى أن الشاعر الجاهلي كان يحس إحساساً كبيراً بالزمن، وهذا الإحساس جعله يندفع إلى اغتنام أوقات الشباب، حريصاً عليها أشد الحرص . ولعلنا لا نغلو إذا زعمنا أنه كان يشعر في قرارة نفسه شعورًا ما بأن ذلك الحين قد منحه مقدارًا أكبر من الحرية تجاه الزمن، تلك الحرية التي تمثلت لديه في إشباع رغائبه وتحقيق أهدافه . وربما كان هذا السبب هو الذي جعل الزمن محببًا إليه في تلك المرحلة، كما جعل صور الحياة حافلة فيه بالمباهج

والمسرات، وفي الوقت نفسه قلل من حديثه عن وطأة الدهر والأيام، وكاد يغيب لديه ذكر الموت والفناء.

أما حين يذوي الشباب، وينغد عهد القوة، وتظهر آيات الكبر متمثلة في الشيب، فإن إحساس الشاعر بالزمن يشرع بالتفاقم، وشعوره بوطأة العمر يبدأ بالازدياد، ودفقة الأمل الجياشة لديه بالحياة تأخذ بالتسرب شيئاً فشيئاً.

ولعل ذلك ما جعل تعاقب الزمن المؤلف من الأيام والليالي والشهور والسنين شديد الوقع على نفس مسجاح بن سباع الضبي، وكان إحساسه به إحساساً مفزطاً، ولا سيما أنه قطع الأمل منه، بعد أن سلبه من يعتمد عليه في مثيبه وكبره^(٤٦):

لقد طوّفتُ في الآفاق حتى	بليتُ وقد أتى لي لو أبيتُ
وأفنانِي، ولا يَفْنَى، نهارُ	وليلُ كلِّها يَمْضِي بِعَمْدٍ
وشهرٌ مُسْتَهْلٌ بعدَ شهرٍ	وحَوْلٌ بعده حَوْلٌ جديد
ومفقودٌ عزيزُ الفقدِ نائي	منِيثُهُ ومأمولٌ وِلِيدُ

ولا يستبعد أن يكون امتداد العمر بحاتم الطائي قد زاد في إحساسه بمرور الزمن، إذ أضحى لديه أوقاً محدودة في إطار الأيام، ولم تكن تلك الأيام إلا اليوم والأمس والغد، وكان العمر بحاضره وماضيه ومستقبله قد تجمّع في شعوره وتركّز في هذه الأيام الثلاثة^(٤٧):

هل الدَّهرُ إلّا اليومُ أو أمْسٍ أو غَدُ	كذاك الرَّمْمانُ بيننا يترَكَّدُ
يَرُدُّ علينا ليلةً بعد يومِها	فلا نحن ما نبقي ولا الدَّهرُ يَنْقُذُ

ولقد صور بعض الشعراء انحسار ما مضى بهم من عمر بأنه في منزلة الطعام الذي يأكلونه، فلا يتبقى منه شيء بعد الأكل، وإنما يفنى فناء تاماً. ولعل

هؤلاء في تصويرهم هذا، أرادوا أن يوحوا إلينا بأن الزمن ببرهاته ولحظاته وساعاته ما هو إلا مدد للحياة، كما أن وجبات الطعام هي أساس استمرارها، معبرين بذلك عن شعورهم باقتران حياتهم بالزمن اقتراناً تاماً، وإحساسهم بأن فقدان الشباب وبداية مرحلة الكبر يقربانهم من الضعف والعجز، ويؤدنيانهم من النهاية.

ويظهر ذلك جلياً لدى الحارث بن كعب الذي التهم شبابه، بشهوره وسنيه، وعاصر أجيالا عدة من قومه، حتى آل به الأمر إلى ضعف الكبر، وقلة حيلته فيه. ومن الجدير بالاهتمام أن الشاعر عبر في شعره تعبيراً مباشراً عن الدهر بأنه قيد حدّ من قوته، وقصر من خطوه، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الفرد كان يشعر بأنه مقيد بالزمن ومقترن به حتى الموت^(٤٨):

أَكَلْتُ شَبَابِي فَأَنْفَيْتُهُ	وَأَنْفَيْتُ بَعْدَ شُهُورٍ شُهُورًا
ثَلَاثَةَ أَهْلِينَ صَاحِبْتُهُمْ	فَبَانُوا وَأَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبِيرًا
قَلِيلَ الطَّعَامِ عَسِيرَ الْقِيَا	مَ قَدْ تَرَكَ الْقَيْدُ حَظْوِي قَصِيرًا
أَيْسْتُ أَرَاغِي نَجْوَمَ السَّمَاءِ	أَقْلُبُ أَمْرِي بَطُونًا ظُهُورًا

وعلى هذا الغرار عبر ذو الإصبع العذواني عن انقضاء العمر حين ضرب مثلاً بلقمان الذي طالت حياته وعاش زمناً طويلاً فكأنه ظلّ يقتات من أيامه وشهوره وسنيه حتى أتى عليها جميعاً، فانتهى بذلك عمره، وانقضت حياته^(٤٩):

هَزَيْتُ رُبِّيَّةً أَنْ رَأَتْ تَرَمِي	وَأِنْ انْحَنَى لَتَقَادُمِ ظَهْرِي ^(٥٠)
مَنْ بَعْدَ مَا عَهِدْتُ، فَأَذَلَّنِي	يَوْمٌ يَجِيءُ وَلَيْلَةٌ تَسْرِي ^(٥١)
لَا تَهْزِي نَفْسِي رُبِّيْبُ فَمَا	فِي ذَاكَ مِنْ عَجَبٍ وَلَا سُخْرِ
أَوْ لَمْ تَسْرِي لِقَمَانَ أَهْلَكَهُ	مَا اقْتَاتَ مِنْ سَنَةٍ وَمِنْ شَهْرِ

ويغلب على ظننا أن إحساس الإنسان العربي، والشاعر بخاصة، ببلوغه مرحلة الكبر أدى به في كثير من الأحيان إلى الشعور بالقلق، لاعتقاده أن هذه المرحلة ستنتهي به حتماً إلى الضعف والوهن ومن ثمَّ إلى الموت. لذلك أضحي نفوره من الشيب أمراً ملانها لحالته النفسية التي باتت نهياً لتصورات المستقبل القاتم، بعد أن أيقنت بفقدان الماضي المشرق.

ويعيننا على قبول هذا الظن ما نجده لدى ساعدة بن جُؤيَّة الهذلي من حالة شبيهة بما ذهبنا إليه، إذ كان موقناً بأن الهرم مترصد للإنسان، ولا سيما إذا اشتعل رأسه شيباً، ولحق به داء المشيب الذي لا شفاء له، ولا براء منه، فسلبه القوة، وجعله سقيماً أبداً^(٥٢):

يا ليت شِعري ألا منجى من الهرم أم هل على العيش بعد الشيب من نكم؟
والشيب داء نجيس لا دواء له للمرء كان صحيحاً صائب القُحم^(٥٣)

وكان موقف عبيد بن الأبرص من المشيب قريباً من ذلك، فقد ذمَّ الشيب الذي حلَّ برأسه وعاث فيه فساداً، والذي دفع الغواني إلى مقاطعته، وهجره هجرًا دائماً، وقد بلغ به الأمر إثر ذلك أن يعدَّ الشيب وصمة تعيب صاحبها وتزري به بين الأنام، بعد أن كان سواد الرأس يزينه، ويرفع من مكانته^(٥٤):

وقد علَّأ لي شيبٌ فودَّعني منه الغواني وداع الصَّارم القَّالي
بأنَّ الشبابُ فالأى لا يُلمُّ بنا واحتلَّ بي من مَشيبٍ أيَّ محلالٍ
والشيبُ شينٌ لمن أرسى بساحته لله درُّ سوادِ اللَّمة الخالي^(٥٥)

ولعل هذه النظرة إلى الشيب هي التي دفعت المُرْقَش الأكبر إلى محاولة إخفائه بالخضاب، لكن أتى له أن يحنال على الزمن، ذلك الذي خلع عنه ثوب الشباب مع سواد الرأس، وألبسه ثوب الكبر مصحوباً بالشيب والصلع^(٥٦):

هل يُسرِّعن لي لئي إن خَضَبْتُها إلى عهدِها قبلَ المَشيبِ خضابها
رأت أقحوانَ الشيبِ فوقَ خَطِيطَةٍ إذا مُطِرتْ لم يَسْتَكُنْ صُوابُها^(٥٧)
فإنَّ يَطْمِنَ الشيبُ الشبابُ فقد تَرى به لئي لم يُرمَ عنها غرابُها^(٥٨)

ويغدو الشيب أحيانا أمرًا يبعث على التساؤل والاستغراب، فقد استنكرت عُمَيْرَةُ بنتُ أَعْصَرُ بن أسعد اللَوْنُ الأبيض الذي داهم رأس أبيها، وانتشر فيه، وهي التي ألقت سواده إِيَّانَ الشباب، فبرِدُ أَعْصَرُ على استنكارها بأن ذلك من طبيعة الزمن الذي إذا طال على المرء آل به إلى هذا المآل^(٥٩):

قَالَتْ عُمَيْرَةُ مَا لِرَأْسِكَ، بعدما نَقِدَ الشَّبَابُ، أتى بلونٍ مُنْكَرٍ؟
أَعْمَيْرُ إِنَّ أَبَاكَ غَيَّرَ لَوْنَهُ مَرُّ اللَّيَالِي واختلافُ الأعْصَرِ

حقاً إن الزمن هو سبب الشيب وعلته الأولى، والملازمة كل الملازمة على الدهر الذي ما يفتأ يهاجم الجسم بحراجه ليلاً ونهاراً، حتى يفقده قوته، ويحوّله إلى ضعف الكبر والمشيب، من غير أن يكون للمرء قدرة على الإفلات من هذا الهجوم المستمر، أو أن يكون له حيلة للخلاص من هذا العدو الفاتك، وذلك بحسب ما يراه الأفوه الأودي حين يقول^(٦٠):

إِنْ تَرَى رَأْسِي فِيهِ قَرْعٌ وَشَوَاتِي خَلَعٌ فِيهَا دَوَارٌ^(٦١)
أَصْبَحْتُ مِنْ بَعْدِ لَوْنٍ وَاحِدٍ وَهِيَ لَوْنَانِي فِي ذَاكَ اعْتِبَارٌ
فُصْرُوفُ الدَّهْرِ فِي أَطْبَاقِهِ خِلَعَةٌ فِيهَا ارْتِفَاعٌ وَانْحِدَارٌ
وَلِيَالِيهِ إِلَّا لِلْقُتُوبِ مِنْ مُدَاهِ تَحْتَلِيهَا، وَشِفَارٌ^(٦٢)
حَتَمَ الدَّهْرُ عَلَيْنَا أَنَّهُ ظَلَفَ مَا نَالَ مِنَّا وَجُبَارٌ^(٦٣)
فَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَذْوَةٌ لَيْسَ عَنْهَا لَامِرِي طَارَ مَطَارٌ

لقد اشتكى معظم الشعراء من امتداد العمر بهم، ولا سيما بعد أن فقدوا قوة الشباب ونضارته، ورأوا في الشيب آية الكبر، ونذير الضعف والهرم؛ لذلك لقي منهم الدّم والاستهجان والكراهية في أغلب الأحيان، وكان مصدراً لقلقهم من النهاية المرتقبة والمصير المحتوم. ولم تكن تلك الرؤية مقتصرة عليهم فقط وإنما كانوا يصدرون فيها عن رؤية شاملة للمجتمع القبلي وللإنسان العربي عامة.

ثانيًا : هاجس الشيخوخة :

إنَّ انحسار الماضي بأعجاده وقوته ، وحلول الشيب بهيمومه وضعفه جعلاً الشاعر الجاهلي ، في حالات كثيرة ، يحسّ بعظم ما فقد من زمن كان محبباً إلى نفسه ، ومن عهد كان يتيح له حرية التمتع بالحياة إلى أبعد مدى . ويبدو أن أفراح الشباب حينذاك وانتهاج لذائذه قد شغلته عن التفكير في الزمن المقبل ؛ إذ لا نكاد نجد لديه رؤية مستقبلية لما سينول إليه في مشييه وشيخوخته ، وكأن مباحج الحياة قد أنسته أن ثمة حيناً من الزمن سيأتي عليه ، ويجعله يرى نفسه عاجزاً عن اصطناع الأجداد والارتواء من اللذائذ . وعلى النقيض من ذلك نجده في مشييه وكبره قد خيم عليه يأس من المستقبل ، وأضحت تتتابه صور قائمة عنه ، تحفل بمشاهد الضعف والعجز .

فمن ذلك ما رسمه لنا لبيد بن ربيعة في مشييه من مشهد لما سيكون عليه في شيخوخته ، من وهن في الجسم يجعله يتوكأ على العصا ، ويلزمه أن يقعد في البيت مكتئباً بالاستماع إلى القصص والأخبار ، فإذا رام السير أو الرحيل أخذ يدبّ على الأرض دبيباً ، محني الظهر متناقل الخطو^(٦٤) :

ليس ورائي ، إن تسراخت منيتي	لرؤم العصا تُحنى عليها الأصابعُ
أخبرَ أخبارَ القرون التي مضتْ	أدبُ كأنّي كلّما قمْتُ راکع
فأصبحتُ مثلَ السيفِ غيرَ جفْنه	تفادُمُ عهدِ القَيْنِ والنَّصْلُ قاطعُ ^(٦٥)

وعلى نحو مماثل كانت رؤية عمرو بن الورد لشيخوخته المقبلة ، تلك التي ستحيجه إلى عصا يتوكأ عليها ، والتي ستحوّله إلى إنسان ضعيف مهانٍ ، منزوٍ في ركن البيت ، غير قادر على الغزو والإغارة ، بل غير قادر على المشي الطبيعي والسير المستقيم ، مما يبعث بأهله على الملل والضجر منه ، ويبعث بخصومه على الشتمة منه والتشفي به^(٦٦) :

أليس ورائي أن أدب على العصا فيشمت أعدائي ويسأمني أهلي
رهينة قعر البيت كل عشية يطيف بي الولدان أهدج كالزال^(٦٧)

وقد بلغ الأمر لدى الأعشى مبلغاً أبعد من لبيد وعروة في رؤيته المستقبلية، إذ إن هاجس الشيخوخة الذي يراوده جعله يعتقد أن امتداد العمر بالإنسان ما هو إلا شقاء مضى وتعب منصب يلحقان به، لأنه بذلك يتلقى ضربات شديدة من الزمن ومصائبه، تدعه في مرض مقيم وحزن دائم، بل ينتهي به تصوره اليأس إلى أن المرء في ذلك الحال لا يختلف عن الميت إلا في أن هذا قد دفن في التراب وغاب عن أنظار الأحياء، وذاك قد ظل في العراء من غير دفن ولا ستر^(٦٨):

لعمرك ما طول هذا الزمن على المرء إلا عتاء معلن
يظل رجياً لريب الثون وللشقم في أهله والحزن^(٦٩)
وهالك أهل يحئون كآخر في قفرة لم يحن

ومما يزيد في قلق الشاعر، واضطرابه، وربما خوفه أيضاً، من هوان الكبر المرتقب، أن النساء يبدأن، غالباً، بالازورار عنه وهجرانه. ولعل شيئاً لم يكن يحز في نفسه ويؤلمه أشد الألم من شعوره بأن المرأة تنظر إليه نظرتها إلى إنسان خالي من الرجولة فاقد للقوة، ولا سبباً أنها كانت تمثل في ذهنه أبرز الرغائب التي يسعى الرجل لبلوغها وتحقيقها.

وعسى أن يكون لنا في شعر الأعشى ما يؤكد ذلك، إذ نجده يشكو شكوى مرّة من الغواني اللواتي صرّمنه حين رأين أمارات الكبر تلوح في رأسه، وحين فقدن الأمل بفتوته وشبابه، ولم يشفع ما كان له من ماضٍ حافل باللهو والمتع عندما كانت النسوة هن اللاتي يرغبن فيه ويسعين لطلبه^(٧٠):

أَثَوَى وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَرِّدَا
ومضى لحاجته وأصبح حبلاًها
وأرى الغواني حين شَبَّتْ هَجَرْتَنِي
إِنَّ الغواني لَا يَواصِلُنَّ امراً
بل ليت شعري هل أعودن ناشئاً
إذ لُتِي سَوداءُ اتَّبَعُ ظِلَّهَا
يلوينني دَينِي النَّهارَ وأجتري
فَمَضَّتْ وَأَخْلَفَ مِنْ قَتِيلَةٍ مَوْعِدَا
خَلَقَا، وكان يظنُّ أن لن يُنْكَدَا
أَنْ لَا أَكُونَنَّ لَهُنَّ مِثْلِي أَمْرَكَا
فَقَدْ الشَّبَابَ وَقَدْ يَصْلُنَّ الْأَمْرَكَا
مِثْلِي زُمَيْنَ أُحِلَّ بُرْقَةٌ أَنْقَدَا^(٧١)
دَدْنَا قُمُودَ غَوَايَةِ أَجْرِي دَدَا^(٧٢)
دَينِي إِذَا وَقَدْ النَّمَّاسُ الرُّقْدَا^(٧٣)

وقد يحاول الشاعر، من خلال هواجس الشيخوخة التي تتتابه، إقناع نفسه بأن الشيب والكبر يشملان المرأة أيضاً، فتغدو مثله قاصرة عن إدراك ما تصبو إليه من الفتيان الأقوياء والرجال الأشداء . وهذا ما كان يعتقد به بشر بن أبي خازم، فقد كَفَّ عن الغزل وفنونه، بعد أن دامه الشيب، يَبْدُ أن ذلك لم يقتصر عليه وحده، وإنما طَالَ أيضاً محبوبته، فأضحى كلاهما في معزل عن اللهو والصِّبَا، وفي منأى عن تحقيق غايات الشباب ورغائبه^(٧٤):

أَجَدُّ مِنْ آلِ فَاطِمَةَ اجْتَنَابَا
وَأَقْصَرَ بَعْدَ مَا شَابَتْ وَشَابَا
وَشَابَ لِدَائُهُ وَعَدَلْنَ عَنْهُ
كَمَا أَهْلِيَّتْ مِنْ لُبْسِ ثِيَابَا
فَإِنْ تَكُ نَبَلُهَا طَاشَتْ وَتَبَلِي
فَقَدْ نَرَمِي بِهَا حِقْبًا صِيَابَا^(٧٥)
فَتَصْطَادُ الرُّجَالُ إِذَا رَمَتْهُمْ
وَأَصْطَادُ الْمُخَبَّاتِ الْكَعْبَا^(٧٦)

وفي غمرة الصراع النفسي الذي يحتدم في داخل الشاعر بسبب الكبر وما يجري عليه من ضعفٍ في البدن، وهجران من النساء، فقد يزعم أحياناً أنه هو الذي عزف عن الصِّبَا، وامتنع عن ضروب اللهو وخالف هواه في معاشره النساء الفاتنات، بعد أن كان ذلك من دأبه ومن متطلبات حياته؛ وعن زعم هذا الزعم الأعشى حين قال^(٧٧):

أَزْمَعْتُ مِنْ آلِ لَيْلٍ ابْتِكَارَا
وَبَانَتْ بِهَا غَرَبَاتُ النَّوَى
فَقَاضَتْ دَمُوعِي كَفَيْضِ الْغُرُ
قَلِيلًا فَنَمَّ رَجَزْتُ الصَّبَا
فَأَصْبَحْتُ لَا أَقْرَبُ الْغَانِيَا
وَأَنَّ أَخَاكَ الَّذِي تَعْلَمِينَ
تَبَدَّلَ بَعْدَ الصَّبَا حِكْمَةً
فَلَمَّا تَرَرْنِي عَلَى آلِهِ
فَقَدْ أَخْرَجَ الْكَاعِبَ الْمُسْتَرَا
وَسَطَّ عَلَى ذِي هَوَى أَنْ تُزَارَا
وَبُذِلَتْ شَوْقًا بِهَا وَادْكَارَا
بِإِمَّا وَكَيْفًا وَإِمَّا انْحِدَارَا^(٧٨)
وَعَادَ عَلَيَّ عَزَائِي وَصَارَا
بِ مُزْدَجِرًا عَنْ هَوَايَ اَزْدَجَارَا
لِيَالِنَا إِذْ نَحُلُّ الْحِفَارَا^(٧٩)
وَقَنَعَهُ الشَّيْبُ مِنْهُ خِمَارَا
قَلَيْتُ الصَّبَا وَهَجَزْتُ التَّجَارَا^(٨٠)
ةً مِنْ خِذْرِهَا وَأَشْبَعُ الْقِمَارَا^(٨١)

ولعل زهير بن أبي سلمى كان يحاول إبعاد ما يراوده من هواجس الشيخوخة ووساوس الهرم حين ادّعى أنه قد صحا من غفلته التي كان فيها أيام الشباب، فكفّ عن الانطلاق في مضمار اللهو والصبا، وانتقاد لوعظ الشيب ونصحه، فلم يعد ينحرف عن طريق الحق وجادة الصواب. يتبدّل أن تجربته مع العذاري سرعان ما فضحت بطلان ادعائه، مبيّنة مدى حشرته على مفارقة الشباب، ومدى قلقه من نعت «العم» الذي أطلقه العذاري عليه^(٨٢):

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ
وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَاجِلُهُ
وَأَقْصَرْتُ عَمَّا تَعْلَمِينَ وَسُدَّدْتُ عَلَيَّ، سَوَى قَصْدِ السَّبِيلِ، مَعَادِلُهُ^(٨٣)
وَقَالَ الْعَذَارَى: إِنَّمَا أَنْتَ عَمْنَا
وَكَانَ الشَّبَابُ كَالْخَلِيطِ نُرَابِلُهُ
فَأَصْبَحْنَا مَا يَعْرِفُنَ إِلَّا خَلِيقَتِي
وَالْأَسْوَدَ الرَّائِسِ وَالشَّيْبَ شَامِلُهُ

ويجئ إلينا أن الشاعر، في معاناته من تصورات الشيخوخة المقبلة، كان يلجأ غالباً إلى ماضيه يستمدّ منه ما يسدّ ثغرة الحاضر، ويبعد عنه توقعات المستقبل، بعد أن أضحي مقتنعا بأنه فقد مظاهر القوة وأسبابها، ولم يعد يجد

وسيلة إليها ، سواء في الحاضر الذي يعيش فيه أو في المستقبل الذي سيطر عليه حاملاً معه هموم الكبر وأثقاله .

ولعل استرجاع الشاعر لماضيهِ لم يكن إلا محاولة يؤكد فيها لنفسه أنَّ ذلك الماضي ، بما ينطوي عليه من مظاهر القوة والمتعة واللهو ، ما هو إلا جزء لصيق به وقابع في ذاته . وإذا كان الزمن قد أحنى على جسمه فأضعفه وأنهكه ، فإن روحه ما زالت تحس بإحساس الشباب الماضي ، وما زالت تشعر بمشاعر الفتوة الذاتية ، وما عرضهُ لصور من أمجاد صباه إلا تعبيراً عن رفضه الشديد لما آل إليه من مصير ، وإنكاره لما يناوش فكره من هواجس ، وكأنه يريد أن يثبت مشاهد الماضي في غيخته لئلا تمنعها من إيراد صور المستقبل التي تعكس مظاهر الضعف والهوان والشقاء .

وقد رأينا عند بكائه للشباب تتوارد على خاطره صورهِ ومظاهرهِ ، وهنا أيضاً نراه يعتمد إلى اجترار ذكريات الماضي ومشاهدهِ ليعرضها على نفسه ، وعلى من عثروه بالكبر ، وظنوا أن صورته الحاضرة تمثل حياته كلها . ولعلنا نجد أصدق تعبير عن هذه الحالة لدى أبي كبير الهذلي في مخاطبته لابنته زُهيرة ، التي أطالت النظر إلى كبرهِ وعجزهِ وتصورهِ ، فبادر إلى ماضيهِ يستجلب منه صوراً حافلة بالقوة ، وزاخرة بالأمجاد ، ومتربة باللذائذ ؛ بيد أنه في نهاية المطاف لم يستطع أن يبعد عنه هواجس الشيخوخة الماثلة في ذهنهِ ، فاعترف بأن واقعه الراهن قد محَا كل آثار الماضي :

أزهرُ إنْ يُصبحَ أبـوكِ مُقْصِراً	طِفْلاً يَنْسُوهُ ، إذا مَشَى ، لِلْكَلْكَلِ
يَهْدِي العمودُ له الطريقَ إذا هُمُ	ظَعَنُوا وَيَعِيدُ للطريقِ الأَسْهَلَ ^(٨٥)
فَلَقَدْ جَمَعْتُ مِنَ الصُّحَابِ سَرِيَّةً	خُذْبًا لِذَاتِ غَيْرِ وَخَيْرِ سُحُلِ
ولقد سَرَيْتُ على الظلامِ بِمَغْشَمِ	جَلِيدٍ مِنَ الْفَتَيَانِ غَيْرِ مُهْبِلِ ^(٨٦)

- وَلَقَدْ شَهِدْتُ الْحَيَّ بَعْدَ رُقَادِهِمْ
نَضَعُ السِّیُوفَ عَلَى طَوَائِفَ مِنْهُمْ
وَلَقَدْ رَبَّاتُ إِذَا الرُّجَالُ تَوَاكَلُوا
فِي رَأْسِ مُشْرِقَةِ الْقَدَالِ كَأَنَّمَا
وَجَلِيلَةُ الْأَنْسَابِ لَيْسَ كَمِثْلِهَا
سَاهَرْتُ عَنْهَا الْكَائِلَتَيْنِ كِلَيْهَا
فَدَخَلْتُ بَيْتًا غَيْرَ بَيْتِ سَنَاحَةٍ
فَإِذَا وَذَلِكَ لَيْسَ إِلَّا حَيْنُهُ
- (٨٧) نُفِّلَ جَمَاجِمُهُمْ بِكُلِّ مُقَلَّلٍ
فَنُقِیمُ مِنْهُمْ مِثْلَ مَا لَمْ يُقَلَّلِ
(٨٨) حَمَّ الظَّهْرِ فِي الْيَمَاعِ الْأَطْوَلِ
(٨٩) أَطْرُ السَّحَابِ بِهَا بَيَاضُ الْمَجْدَلِ
مِمَّنْ تَمَتَّعَ قَدْ أَتَتْهَا أَرْسُلِي
(٩٠) حَتَّى التَّقْتُ إِلَى السَّمَاءِ الْأَعْرَلِ
(٩١) وَازْدَرْتُ مُرْزَادَ الْكَرِيمِ الْمُعْوَلِ
وَإِذَا مَضَى شَيْءٌ كَانَ لَمْ يُقَلَّلِ

وشبيه بذلك ما كان من شأن ربيعة بن مقروم الضَّبِّي الذي امتدَّ به العمر، وثقلت عليه أعباؤه، واشتدَّت به وساوسه، فالتفت إلى الماضي يغترف من أمجاده ما يعوِّض به عجز الحاضر وضعفه، فكثيرًا ما جالس الملوك، وكثيرًا ما أفحم الخصوم، ولم يدع من لذائذ العيش شيئًا إلا ناله، يَدَّ أَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ قَدْ طَوَاهُ الدَّهْرُ، وأبليت جدته الأيام^(٩٢). ولم تكن حال الأعشى في مشييه بعيدة عن حال ربيعة، فهو أيضًا قد حاول أن يثبت لنفسه أنه فتى الأُمس، ذو القوة والاعتدال، وتلك صور أمجاده ومشاهد لهوه يعرضها متتالية، كأنه يريد أن يدفع بها هواجس الشيخوخة التي أخذت تنتابه^(٩٣).

ونجد في بعض الأحيان أَنَّ أمر الكبر يغدو أشدَّ وقعًا على النفس الشاعرة، وأبعد أثرًا فيها، وذلك إذا كان الشاعر سيدًا شريفًا في قومه؛ لأنَّ قوته وشجاعته وسائر مظاهر الفتوة لديه كان لها الدور الأكبر في منحه تلك المكانة، فإذا أحس بفقدائها، وشعر بأنها أخذت تزوي في حجب الماضي، أدرك سوء الحال التي آل إليها، وبدأت تخيلات المستقبل المنشائمة تحيم على أفكاره، حينئذ لا يرى مُتَنَفِّسًا لَهُ إِلَّا اسْتِرْجَاعَ مَا قَبِعَ فِي ذَهْنِهِ مِنْ ذَكْرِيَّاتِ الْمَاضِي، فيلتفت إليها

يناجيها، ويبيعنها من جديد؛ لكي يبرهن على أنه قطف ثمار الحياة يانعة، ونهل من ينبوعها الثمر حتى الارتواء، على نحو ما كان من شأن زهير بن جناب الكلبي حين بلغ من الكبر ما بلغ، فعبر عن حاله في قوله (٩٤):

أَتَيْتُ إِنْ أَهْلِكَ فَلِإِيَّيْ قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ بَيْتًا
وجعلتكم أبناءً سا دَاتِ زِنَادُكُمْ وَرِيًّا
من كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلْتُهُ إِلَّا التَّحِيَّةَ (٩٥)
ولقد رأيتُ النَّارَ لِلشُّلَّافِ تَوْقَدُ فِي طَمِيَّةِ (٩٦)
ولقد رحلتُ الْبَازِلَ الْوَجْنَاءَ لَيْسَ لَهَا وَلِيَّةُ (٩٧)
ولقد غَدَوْتُ بِمُشْرِفِ الطُّرُقَيْنِ لَمْ يَنْفِرْ مِنْ شَطِئَتِي (٩٨)
فَأَصَبْتُ مِنْ حُمْرِ الْقَنَّا بِي مَعَا وَمِنْ حُمْرِ الْقَفِيَّةِ (٩٩)
وَنَطَقْتُ خُطْبَةً مَاجِدٍ غَيْرِ الضَّعِيفِ وَلَا الْعِيَّةِ

لقد أفصح الشعراء عما شعروا به من وطأة الزمن عليهم، وعما كان من قلقهم وهواجسهم تجاه مستقبلهم، إذا ما امتد بهم العمر، وقد زاد الحال سوءاً لديهم ما رأوه من موقف النساء السليبي منهم، وهذا ما دفعهم إلى الالتفات نحو الماضي يستحضرونه، ويجلبون منه صور شبابهم وفتوتهم، يتعزّون بها، ويمثلون حاضرمهم بمشاهدتها. وذلك كلّهُ، يؤكد رؤية الإنسان العربي لحياته التي تتمثل في أزمان متعاقبة وأطوار مختلفة، تحمله في رحلة العمر من ولادته حتى كبره وشيخوخته.

- ثالثاً: عجز الشيخوخة :

لا ريب في أن الحياة القبلية في الجزيرة العربية، كما ألمحنا إلى ذلك مراراً في هذا البحث، كانت تتطلب من الأفراد أن يكونوا أقوياء، لكي يواجهوا قسوة مناخها، فيتحمّلوا ما قد ترميهم به من ظمأ شديد، وما قد تلحق بهم من جوع

مهلك، فضلاً عما ترصده لهم في تنقلهم من ضروب المهالك والأخطار، وعما تحفيه لهم في ثنایاها ومنعطفاتها من حيوانات، تتحين غرة سانحة للانقضاض والافتراس. فإذا قدّمنا على ذلك كله ما كانت تقوم عليه تلك الحياة في معاشها من غزوات وإغارات وحروب أدركنا مدى احتیاج الإنسان العربي فيها إلى جسم قوي، وبدن متين، وقدرة مستمرة، تكون وسيلته إلى أسباب العیش، ومنعة تهيئ له الحفاظ على حياته وصون وجوده.

ومن المرجح لدينا أن الشاعر الجاهلي قد وعى ذلك وعياً تاماً، وأدرك إدراكاً كاملاً، وما كان إحساسه المفرط بالزمن، وجزعه من المشيب، وقلقه من هواجس الشيخوخة، التي عرضنا لها آنفاً، إلا صدّى لوعيه وإدراكه لأهمية القوة في الحياة.

ولعل هذا الأمر يغدو أكثر بروزاً وأظهر جلاء ووضوحاً لديه حين يُعمر طويلاً، فيأتي عليه الدهر بثقله، وينوء على جسمه بكلكله، ويسلب منه كل قوة، ليدعه في شيخوخته مهیض الجناح، واهي القوى، قليل الحيلة، خائر العزيمة، فيزداد بذلك ألمه من الزمن، وتزداد حسرته على ما مضى من العمر، ويضحي، غالباً، متذمراً من الحياة، كثير الشكوى من الأحياء، معبراً عن ذلك في شعره تعبيراً صادقاً، عارضاً علينا فيه صوراً تمثل ما آل إليه في شيخوخته من ضعف شديد وعجز كبير.

وقد تركّزت معظم هذه الصور حول حالتين من حالات الشيخوخة لديه، فأبرزت في الحالة الأولى شكواه المبررة مما لحق به من ضروب الوهن والقصور، وأبرزت في الحالة الثانية مكابדתه ومعاناته من الموقف السلبي الذي يقفه منه أهله وأقرباؤه وقبيلته عامة.

ويبدو أن هاتين الحالتين قد دفعته، في أحيان كثيرة، إلى اليأس من الحياة والرغبة في الموت، على الرغم من أنه كان، في بعض الأوقات، يعزّي النفس بما

للسيوخوخة من جانب إيجاب في الحكمة والخبرة والتجربة التي يتصف بها صاحبها، وترفع من مكانته في قومه وقبيلته.

فمن الشعراء الذين نجد سمات الحالة الأولى ظاهرة لديهم عمرو بن قميئة؛ وذلك حين بلغ أرذل العمر، وحمل أثقال تسعين عاماً على كاهله، ممّا جعله يفقد عزيمة النفس، فلا يقدر على ضبط أموره، ويفقد قوة البدن، فلا يقدر على النهوض مباشرة إذا رام القيام. ويبدو أنه كان مقتنعاً بأن سبب كبره وضعفه يعود إلى الدهر ومصائبه ومكآربه، تلك التي أخذت وهج الأمل في نفسه، وأفقدته الرجاء في عودة القوة والحياة إليه للاستمرار في الحياة والبقاء بين الأحياء^(١٠٠):

كأنّي، وقد جاوزت تسعين حِجَّةً،	خلعتُ بها يوماً عِذارَ لحامي ^(١٠١)
على راحتين مرةً وعلى العصا	أنوءُ ثلاثاً، بعدهنّ قيامي
رَمَتْنِي بناتُ الدَّهر من حيث لا أرى	فكيف بمنّ يُسرّمي وليس بمرام
فلو أنّها نبّل إذا لا تَقِيَّتْهَا	ولكنّني أرمي بغير سهام
إذا ما رأي الناسُ قالوا: ألم تكن	حديثاً جديداً البرّ غير كهّام ^(١٠٢)
وأهلكني تأميل يـوم وليلـةٍ	وتأميلُ عام بعد ذاك وعام

وعلى نحو قريب صور ذو الإصبع العذواني نفسه شيئاً قد ضعف بصره، وقَلَّ سمعه، وانحنى ظهره، فغدا واهن العظم، فاقـد القوى، قليل الحركة^(١٠٣):

أصبحتُ شيئاً أرى الشخصَينِ أربعةً	والشخصَ شخصَينِ لما مَسَّنِي الكِبَرُ
لا أسمعُ الصوتَ حتى أستديرَ له	ليلاً، وإنّ هو ناغاني به القَمَرُ ^(١٠٤)
وكنْتُ أمشي على الرُّجلينِ معتدلاً	فصرتُ أمشي على مائتَيْ الشَّجَرُ
إذا أقسومُ عَجَنْتُ الأرضَ مُتَكِبّاً	على البراجِمِ حتى يذهبَ النُّفَرُ ^(١٠٥)

وفَقَدَ عامر بن جُوَيْنٍ الطَّائِيَّ في شيخوخته الأمل في أن يعود سليم البدن،
متملِّكًا صحة وعافية ونشاطًا، وذلك بعد أن تَغَفَّضَ منه الجلد، وشابَّ الرأس،
وتقاصر الخطو، وذهب السمع، وتشقَّصَ الضرس، وتكاثرت لديه الهموم
والأحزان على مَنْ هلك قبله من الأهل والأقرباء^(١٠٦):

المرءُ ييكسي للــــلا	مةٍ والسَّلامَةُ لا تُحْسِنُ
أو سَالِمٌ مَنْ قَدْ تَنَتَّنْ	سى جلدُهُ وبيضُ رأسِهِ؟
أو دَبَّ مَنْ هــــرَمَ وأو	دى سمْعُهُ وانفَقَ ضَرْسُهُ
أودى الرزْمَانُ بأهلِهِ	وبأقْرَبَيْهِ، فَقَلَّ أنْسُهُ

وقد أضاف الحارث بن التَّوَّامِ اليَشْكُورِيُّ إلى مظاهر ضعف البدن ضعفًا آخر
في النفس، يُجَلِّ في فقدانه قوة الإرادة التي تساعد على تسير أمور حياته،
ويُجَلِّ أيضًا في فقدانه القدرة على منع الذل ورفض الإهانة^(١٠٧):

زعمتُ ثَمَامَةً أَنِّي قَدْ سُوِّتُهَا	ولقد أتى لي أن أسوء وأكبرًا
إنَّ الكبيرَ إذا يُشَافُ رأيتُهُ	مُقَرَّشَعًا، وإذا يُهانُ استزمرًا
وإذا تَرَحَّلَ في الرعيَّةِ خِلْتُهُ	كَيْسَلًا وَعَزَّ عليه أن يتعذَّرًا ^(١٠٨)
وإذا تراءى القومُ شخصًا خالَهُ	شخصَيْنِ ثُمَّتْ لم يكن هو أَبْصَرًا

وإذا انتقلنا إلى الحالة الثانية وجدنا أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما عرضه لنا
الشاعر في حالته الأولى كما تتأثر بها تأثرًا مباشرًا، إذ إنَّ شعور الفرد بالعجز زاد
من إحساسه غالبًا بأن مكانته بين قومه آخذة بالزوال، وزاد في قناعته بأنه
أضحى كلاً وعالة على أهله ورهطه. وآيات ذلك لديه ظاهرة في إهمالهم له
إهمالاً واضحاً، وفي إهمالهم الأمور التي تخصه من غير مشورته، وفي تركه وحيداً
متبذلاً في البيت، بل قد يبلغ الأمر بهم أحياناً أن يدعوا أطفالهم يحترشون به،

ويزعجونه، من غير أن يلتفتوا إلى ذلك أو يعيروه اهتماما.

فمن ذلك ما صورته لنا دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ، في شعره، من موقف قومه منه، بعد أن أسنَّ، وضعف جسمه، ووهن عظمه، فقد أقصوه عن مجالسهم، ونأوا به بعيدًا عن منازل ساداتهم وأشرفهم، فغدا كطير قد جُزَّ منه الجناحان، أو كفرخ من الفراخ قد وقع في مغالب حيوان مفترس، فلم يستطع خلاصًا منها، فضلًا عن أنهم قد حرموه حتى من إبداء الرأي وإسداء المشورة، على الرغم من أن عقله لا يزال راجحًا، وحكمته لا تزال صائبة، متتهيًا إلى أنَّ ذلك كله كان نتيجة لطول الزمن الذي امتد به، والذي أنهك جسمه، وقصّر خطوه، وأفقده قواه^(١٠٩):

أَصْبَحْتُ أَقْذِفُ أَهْدَافَ الْمَثُونِ كَمَا	يَزِمِي الدَّرِيئَةَ أَذْنَى فُوقَةَ السَّوَرِ ^(١١٠)
فِي مِثْصَفٍ مِنْ مَدَى تَسْعِينَ مِنْ مِثَّةٍ	كَزَمِيهِ الْكَاعِبُ الْعَذْرَاءُ بِالْحَجَرِ ^(١١١)
فِي مَنْزِلٍ نَازِحٍ مِ الْحَيِّ مُتَبَذِّ	كَمَرُبِطِ الْغَيْرِ لَا أَذْعَى إِلَى خَبَرِ
كَأَنِّي خَرَبْتُ فَصَّتْ قَوَادِمُهُ	أَوْ جُنَّةً مِنْ بُغَاثٍ فِي يَدَيَّ خَصِرِ ^(١١٢)
يَمْضُونَ أَمْرَهُمْ دُونِي وَمَا فَقَدُوا	مَنِي عَزِيمَةَ أَمْرٍ مَا خَلَا كَيْبَرِي
وَنَوْمَةٍ لَسْتُ أَقْضِيهَا وَإِنْ مَتَّعْتُ	وَمَا مَضَى قَبْلُ مِنْ شَأْوِي وَمَنْ عُمُرِي
وَإِنِّي رَابِنِي قَبْدٌ حَيْثُ بِهِ	وَقَدْ أَكُونُ وَمَا يَمْشِي عَلَى أُنْصَرِي
إِنَّ السَّنِينَ إِذَا قَارَبُنَّ مِنْ مِثَّةٍ	لَسَوَيْنَ مِثْرَةَ أَحْوَالِي عَلَى مِثْرِ ^(١١٣)

وشبه بهذا ما شكاه منه مَصَّادُ بْنُ جَنَابِ الْيَرْبُوعِيِّ حين جاوز المائة، فأضحى قعيد الدار، يتولى أمره الآخرون، فيقيدون حرّيته، ويمنعونه من تحقيق رغائبه، فلا يجد بدءًا من الانقياد لهم ذليلاً مهاناً؛ لأنه بات بلا حول ولا قوة^(١١٤). كذلك كان شَانُ سَمْعَانَ بْنِ هُبَيْرَةَ الْأَسَدِيِّ في شيخوخته، إذ أصبح سخريه قومه، ونسائهم بخاصة، عندما كثر شيب رأسه، وتقوَّس ظهره، وغدا

ملازمًا البيت، لا يقدر على تحصيل الأجداد كما كان شأنه إبان عهد فتوته وشبابه^(١١٥).

وبلغ الأمر بأحفاد المشتوغر بن ربيعة أن اعتادوا على الاحتراش به، ومحاولة إيذائه، حتى خال أنهم غدوا يكرهون بقاءه، ويرغبون في موته والتخلص منه. وذلك لما رأوا ما آل إليه من كبر أثقل سمعه، وجعله لا يستجيب إلا إذا دُعي بأعلى صوت وأجهره^(١١٦):

إذا ما المرء صمَّ فلم يُنْجَى	وأودى سَمْعُهُ إِلَّا نِدَايَا ^(١١٧)
ولاعبَ بالعشيِّ بَنَى بِنِيهِ	كفعل المِرِّ بِحَرَشِ الْعَظَايَا ^(١١٨)
يُلَاعِبُهُمْ وَوَدُّوا لَوْ سَقَّوْهُ	من الذيفانِ مُرَّةً مِلَايَا ^(١١٩)
فَلَا ذَاقَ النِّعَمَ وَلَا شَرَابَا	وَلَا يُسْقَى مِنَ الْمَرَضِ الشِّفَايَا

وهذا الموقف من الأهل والأقرباء تجاه الشاعر الشيخ جعله في بعض الأحيان يلجأ إلى فنه الشعري، يتخذه وسيلة إلى معاتبتهم وتذكيرهم بحقوقه عليهم، وواجباتهم نحوه، وأدناها أن يولوه عناية واهتماما، فيقدِّموا إليه ما يحتاجه ويناسبه في مختلف الأوقات. وهذا ما نجده واضحا لدى الرُّبَيْعِ بن صَبْعِ الفَزَارِيِّ في معاتبته لبنيه وأزواجهم معاتبة رقيقة، تنطوي على شيء يسير من التقرُّيع والتأنيب:

أَلَا أُبْلِغُ يَسَى بَنِي رُبَيْعٍ	فَأَنْذَالَ الْبَنِينَ لَكُمْ فِدَاءً
بَأَنِّي قَدْ كَبُرْتُ وَرَقَى عَظْمِي	فَلَا يَشْفَلُكُمْ عَنِّي النُّسَاءُ
وإنْ كُنَّا نِي لِنَسَاءٍ صَدِيقِ	وَمَا أَشْكُو يَسَى وَمَا أَسَاءُوا
إِذَا جَاءَ الشُّنَاءُ فَأَذْفَنُونِي	فَلِإِنَّ الشَّيْخَ يَهْرُمُ الشُّنَاءُ
وَأَمَّا حِينَ يَذْهَبُ كُلُّ قُرٍّ	فَيَرْبَا سَالٌ خَفِيفٌ أَوْ رِدَاءُ

يَبْدُ أن الشاعر لم يكن في الغالب ليرضى عن معاملة قومه له، أو ليرضى عن وضعه العام في الحياة، ونحن نرى أن إحساسه الشديد بمظاهر الشيخوخة من ضعف وعجز وقصور كانت تدفعه إلى الاعتقاد أن مهمته في الحياة قد انتهت أو أوشكت على النهاية، فقد أضحي بمنأى عن مشاركة القبيلة في غزواتها أو في الذود عن حياضها، كما أصبح في معزل عن ارتياد مجالس اللهو والأنس وبلوغ المتع واللذائذ، ولم يتبقَّ له إلا أن يقعد مع الخوالب والأطفال والمرضى، تنتابه الهموم والأحزان، وتستبد به الهواجس من كل حذب وصوب، ولا سيما أنه لم يجد في حياة الصحراء وأيامها الطويلة ما يشغله عما هو فيه من تعب ونصب.

فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما ورد عن العرب من أن منهم مَنْ كان يجب الرجل الكبير، فيتركه في بيت خاص ترعاه فيه الإماء^(١٢١). فإننا لا نستغرب بعد ذلك أن نجد الشعراء، والمعمَّرين منهم خصوصاً، ينزعون في أشعارهم إلى اليأس والسأم والضجر من الحياة، ويثبون فيها روح التشاؤم من استمرار العيش، بل قد يميل بعضهم إلى تفضيل الموت على حياة فيها ذل الكبر ومهانة الشيخوخة.

ولعل أكثر النصوص الشعرية التي قد مناها في هذه الفقرة قد عبّرت عن الحالة التي ألمحنا إليها، علاوة على ذلك ما نجده لدى زهير بن أبي سلمى من ملل من الحياة، وازدياد سأمه من تكاليفها وأعبائها، على الرغم من أنه لم يعيش فيها سوى ثمانين عاماً^(١٢٢):

سَمِثْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعْشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا، لَا أَبَالِكَ، يَسَامُ
وكذلك كان الشأن لدى ليبد بن ربيعة حين طال به العمر، وامتد به الأجل، وكثر سؤال الناس عن حاله في شيخوخته^(١٢٣):

ولقد سَمِثْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا وَسْوَالِ هَذَا النَّاسِ: كَيْفَ لَيْدُ؟

وقد أبان عامر بن جُوَيْنٍ في شعره عن سبب يأسه من الحياة وتشاؤمه بما قد تأتي به أيامها، بأن ذلك يرجع إلى إهمال قومه، وإيقانهم له مع النساء في ترحالهم؛ لما هو فيه من ضعف وعجز بلغا به مبلغاً جعله يطرد الكلاب التي تأتي إلى ظل جملة من الحر، وذلك خشية أن ينفر به فلا يستطيع أن يملك رأسه، ويمسك بزمامه (١٢٤):

مَاذَا أَرْجِي مِنَ الْحَيَاةِ إِذَا خُلِفْتُ وَشَطَّ الظُّعْمَانِ الْأَوَّلِ
مَغْتَبِرًا أَطْرُدُ الْكِلَابَ عَنِ الظِّلِّ إِذَا مَا دَنَوْنَ لِلْجَمَلِ (١٢٥)

وهذه الحال ذاتها هي التي دفعت بزهير بن جَنَابٍ إلى أن يفضل الموت على أن يظل ملازمًا الظعائن، لا يقدر أن يركب مع الفرسان وأن ينزل معهم (١٢٦):

فَلَلَمُوتُ خَيْرٌ مِنْ حِدَاجٍ مُوْطَأٍ مَعَ الظُّفْنِ لَا يَأْتِي الْمَحَلَّ لِحَبِ (١٢٧)

وقد توصل بعض الشعراء، إثر ما لاقى من متاعب الكبر وأشجانه، إلى ما يشبه فلسفة فكرية معينة؛ تقرر أنه إذا كانت القوة هي أساس حياة المرء في البادية فإن من الأفضل للمرء أن يموت حين يفقدها على أن يبقى حيًا يعاني من آلام الشيخوخة البدنية والنفسية. وذلك ما نجد ملاحظه واضحة لدى زهير بن جناب عندما قال (١٢٨):

وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى وَلَيْهَلِكُنَّ بِهِ بِقِيَّةُ
مَنْ أَنْ يُرَى الشَّيْخَ الْبَجَا لَ، وَقَدْ يُهَادَى بِالْعَشِيَّةِ (١٢٩)

ويبدو أن بعض الشعراء كان يحاول أحياناً أن ينتظر إلى المستقبل نظرة الأمل والتفاؤل، فيزعم أن روحه ما زالت قوية، وأن نفسه ما زالت في حداثها ونشاطها، على الرغم من ضعف الجسم وهن العظم، كما تتبين ذلك في قول لبید بن ربیعة (١٣٠):

فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ السِّيفِ غَيْرَ جَفْنَةٍ تَقَادُمُ عَهْدِ الْقَبْرِ وَالنَّضْلُ قَاطِعُ
وأعطى شُعْبَةَ بن قُمَيْرِ الطُّهَوِيَّ صورة مماثلة عن بقاء النفس فيه قوية،
والإرادة لديه ماضية (١٣١):

وَعَدْتُ كَنَضْلِ السِّيفِ رَثْتُ جُفُونَهُ وَأَبْدَانُهُ، وَالنَّضْلُ غَيْرُ كَلِيلِ

وذهب شعراء آخرون إلى أنهم لا يزالون في كبرهم يتصفون بالأخلاق
الفاضلة، ويقومون بالأعمال المجيدة التي كانوا يقومون بها إبان شبابهم، بل
زادوا عليها حكمة استخلصوها من خبرة الأيام وتجاربها، على نحو ما يفخر به
عُزُوف بن عَطِيَّة في قوله (١٣٢):

وَقَالَتْ كُبَيْبَةُ مِنْ جَهْلِهَا أَشَيْتَا قَدِيماً وَحِلْماً مَعَارَا؟
فَمَا زَادَنِي الشَّيْبُ إِلَّا نَسْدَى إِذَا اسْتَرَوْحَ الْمَرْضَعَاتُ الْقُنَارَا (١٣٣)
أَخْبِي الْخَلِيلَ وَأَعْطِي الْجَزِيلَ حِيَاءً وَأَفْعُلْ فِيهِ الْيَسَارَا (١٣٤)
وَأَمْنُ جَارِي مِنَ الْمُجْحَفَا بَ وَالْجَارُ مُتَمَنِّعٌ حَيْثُ صَارَا

وشبيه بهذا ما افتخر به مالك بن حريم المَدَنِيُّ، في شعره، من أنه بعد
مشييه ظل يأبى على نفسه أن يقعد عن حماية قومه، أو أن يغفل عن إكرام
الضيف النازل به، أو أن يخرق حرمة الجوار ويمتنع عن إكرامه (١٣٥). وكذلك
كان شأن لبيد بن ربيعة، حين ردَّ على من عثرته بالشيب والكبر بأن حاله تلك
إنما أتت مما يقاسي من خطوب لا يقوم لها إلا السادة الكرماء العقلاء، ومما
يقدمه من أفعال خيرة في أزمان الشدة وأيام المحن (١٣٦).

وإذا كان قد ورد عن بعض العرب أنهم كانوا يجلبون شيوخهم فإن ذلك لم
يكن سائدا بينهم جميعا، وإنما كان العرب عامة يحمدون آراء الشيوخ ويرفعون

من مكانتهم، لما مرَّ عليهم من التجارب التي عرفوا بها عواقب الأمور، ولما طرأ عليهم من الحوادث التي أوضحت لهم طريق الصواب، لما مُنحوا من أصالة الرأي وصواب الحكمة^(١٣٧). ولعل حجب بعضهم للشيخوخة إنما كان يتم عند مجزئهم عجزاً تاماً، يجعلهم يفقدون القدرة على الحركة، ويضعفون عن المحاكمة السليمة وإبداء الرأي الصائب.

بيد أننا في كلامنا على المشيب والكبر قد اهتممنا اهتماماً زائداً بما عبَّر به الشعراء أنفسهم عن الأحاسيس والمشاعر في ذينك العهدين، وكانت الصورة، لدى معظمهم، تنبئ بكرههم للشيخ والكبر والشيخوخة كرهاً واضحاً، ظهر في نفورهم من المشيب، وفي محاولتهم إبعاد هواجس الشيخوخة عن أفكارهم، كما برز لدى المعمرين منهم خصوصاً من معاناتهم معاناة شديدة من وطأة الشيخوخة وما تجره عليهم من مظاهر العجز ومجافة الأهل.

وذلك كله قد نتج لديهم من تجارب ذاتية، ومن معاناة شعورية، كانوا يصعدون فيها عن رؤيتهم الشخصية الخاصة بتلك المرحلة من العمر؛ ولعل هذا ما جعل تلك الرؤية صادقة في التعبير عن ذوات أصحابها، وواقعية في تصوير أحاسيسهم وانفعالاتهم. وأغلب الظن أن الأغراض الشعرية الأخرى افتقدت، في معظمها، رؤية مشابهة، ذلك لأنها كشفت عن أغوار الإنسان العربي في موقفه من زمنه الضيق، وجلَّت أبعاده النفسية حيال النهاية المرتقبة، وفي الوقت نفسه لم تغفل عن إظهار أثر البيئة التي عاش فيها، وأثر المجتمع الذي امتد به الأجل بين ظهرانيه.



الهوامش

- (١) الديوان : ص ٣١٥.
- (٢) الجبّة : حديدة السنان الذي يدخل فيها الرمح . تثقيب الرماح : تسويتها وإصلاح سنانها وتحميدها .
- (٣) الكتيف : الضبّة ، وهي من أدوات الحدادة والصياغة .
- (٤) الدّليف : مشي في خطو متقارب قصير .
- (٥) أساس البلاغة : مادة (فني) ، ولسان العرب : مادة (فتنا) ، والقاموس المحيط : مادة (فتنا) .
- (٦) شرح الفصائد العشر : ص ١٢٣ - ١٢٥ .
- (٧) قصائد جاهلية نادرة : ص ٨٩ - ٩٠ .
- (٨) صهباء : شقراء . والخزرس : الدّنّ .
- (٩) عانية : حمر منسوبة إلى عانة ، وهي قرية على الفرات في العراق ، وقيل موضع بالجزيرة .
- (١٠) المناجد : المقاتل . وطعنة خلس : أي طعنة سريعة بحذق .
- (١١) اللّغس : جمع لعساء ، من «اللّغيس» ، وهولون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا .
- (١٢) العنّس : الناقة الصلبة . والبليّة : هنا ، الناقة أبلاها السفر .
- (١٣) مجالس ثعلب : ٢٩٥ / ١ ، والأمال : ١٧٠ / ٢ ، وورد فيه أن اسم الشاعر سلّمي ابن غويّة بن سلّمي . وعوية أو غويّة بن سلمى أبو الشاعر ، ورد أنه من ضبّة من بني ثعلبة ، شاعر جاهلي . انظر معجم الشعراء : ص ١٥٧ .
- (١٤) الإرشاق : إحداث النظر .
- (١٥) أي وطراد خيل خيلاً مثلها التفنا في الحرب .
- (١٦) الديوان : ص ٦٧ - ٧٣ .
- (١٧) الديوان : ص ١٣ - ١٤ .

- (١٨) شرح القصائد العشر: ص ٤٢٨ - ٤٣٠ .
- (١٩) الاختياران: ص ٢١١ - ٢١٥ ، والطرائف الأدبية: ص ٧٢ - ٧٥ مع بعض الاختلاف في رواية الآيات . وعمرو بن قعاس من بني غُطَيْف ، من مراد ، شاعر جاهلي . انظر معجم الشعراء ص ٥٩ ، والاشتقاق ص ٤١٣ .
- (٢٠) اسْتَمِثَ : طَلَبْتُ ، والظباء تُسْتَمَى ، أي تُطلب وتُرْمى نصف النهار .
- (٢١) يقول : إذا رأيت قوماً مجتمعين على زق دخلت معهم .
- (٢٢) الشُّكَّةُ : السلاح . والأفُق : الشديد الموثق .
- (٢٣) المحاجر: جمع المَحْجَر ، وهو ما دار بالعين من جميع الجوانب ، وأراد : مهاة سوداء المحاجر .
- (٢٤) التامور: شيء يُشَبَّه بالخمرة وبالدم وبالصبيغ ، وإنما يعني دماً هَرَّاقَهُ . وَحَبَّة : يقال : حَبَّة نفسه أي حاجتها .
- (٢٥) قيل : إنه هجا ملكاً ، لم يهجه أحد ، فكانه أكل لحمه .
- (٢٦) البرك : القطعة من الإبل . المَشْرِقي : السيف . العُفْر : حيث تقع أيدي الإبل على الخوض يقول : خاف أن تبرك فبادرها فرماها .
- (٢٧) شرح القصائد العشر: ص ١٣٠ .
- (٢٨) الديوان: ص ١٩٩ .
- (٢٩) الخُود : الشابة المنعمَة . يستمي : يطلب . والقُحْم : الأهوال ، وفردها : قُحمة .
- (٣٠) لَقِحت الحرب : اشتدت . وأعل : يقال : أعل عن الدابة ، إذا نزل عنها . الشَّارِق : جمع التَّمَرِّقَة ، وهي الوسادة الصغيرة ، يُتَكأ عليها .
- (٣١) الديوان: ص ١٢٣ ، وانظر قطعة شعرية في المعنى نفسه : ص ١١٣ .
- (٣٢) الديوان: ٤٨ - ٥٠ .
- (٣٣) الأُمم : العظيم والصغير ، من الأضداد ، وهنا الصغير .
- (٣٤) المِيعَة : من الشباب ومن كل شيء ، أوله . والعُصم : جمع الأعصم ، وهو الوعل .
- (٣٥) الرِّيط : جمع الرِّيطَة ، وهي الملاءة . والتَّجَار : جمع تاجر ، والعرب تسمي بائع الخمر تاجراً واللُّمَم : جمع اللِّمَّة وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن .
- (٣٦) شرح أشعار الهذليين: ١٠٦٩/٣ - ١٠٧٠ ، وورد فيه أن اسم الشاعر عامر بن الحُلَيْس ، أحد بني سعد بن هذيل ، واكتفى ابن قتيبة بأنه عامر بن الحُلَيْس شاعر

- جاهلي، الشعر والشعراء: ٦٧٠ / ٢.
- (٣٧) القِدَال: مابين الأذنين والقصا. والهِضَل: الجماعة من الناس يُغزى بهم. ومَرَس: ذو شدة.
- (٣٨) لَفَفْتُ بهم: كنت رئيساً عليهم. ومُحَلَّل: يقول: كان عليهم نذر فأحلوه.
- (٣٩) يُفَل سيف لم يُسلل: كُنْ بذلك عن هزيمتهم واندحارهم.
- (٤٠) النوادر في اللغة: ص ٤٤.
- (٤١) مُلاوَةٌ: قليلاً. شبارق: مقطع.
- (٤٢) اجْتَوَتْ: كرهت. اللَّدات: جمع اللدة، وهو الذي ولد معك وترى معك. والغرائق: جمع الغُرُنُق، وهو الشاب الأبيض الجميل.
- (٤٣) الديوان: ص ٩٠ - ٩٤.
- (٤٤) اليعاقب: جمع يعقوب، وهو الحجل، وقيل إنه العُقاب.
- (٤٥) التأويب: الإمعان في السير، والتأويب: الرجوع أيضاً.
- (٤٦) الحماسة: ١٠٠٩ / ٣، وذكر ابن دريد أن مسجاح بن سباع من ضَبَّة، وأنه كان من المعمرين، الاشتقاق: ص ١٩٦.
- (٤٧) الديوان: ص ٣٤.
- (٤٨) الشعر والشعراء: ١٠٥ / ١، والأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية في المعمرين والوصايا: ص ١٢٤. وقد نسبها السجستاني إلى مالك بن المنذر البجلي. ووردت أيضاً في أمالي المرتضى: ١ / ٢٣٢. وقد ذكر ابن قتيبة في المصدر الأول أن الحارث بن كعب كان قديماً ويعدّ من أوائل الشعراء.
- (٤٩) الديوان: ص ٣٩ - ٤٠، ونسبت الأبيات في مجالس نعلب: ١ / ٢٩٦ إلى سلمي ابن عوية، وفي الأمالي: ٢ / ١٧٠ إلى سلمي بن غوية.
- (٥٠) الثَّرم: انكسار السن من أصلها، وذلك من أمارات الكبر.
- (٥١) أدلفني: صبرني أدلف، أي أمشي رويدا.
- (٥٢) شرح أشعار الهذليين: ٣ / ١١٢٢.
- (٥٣) النجيس: الناجس، وهو الذي لا يكاد يبرأ منه من الأمراض. والفُحَم: جمع الفُحمة، وهي المهلكة، أي إذا اقتحم فُحمة لم يطرش.
- (٥٤) الديوان: ص ١٠٠ - ١٠٤.

- (٥٥) السواد الخالي: الماضي، أو الخالي من الشيب.
- (٥٦) المفضليات: ص ٤٨٤.
- (٥٧) الحطيطلة: أصلها أرض لم تمطر بين أرضين معطورتين، شبه صلته بها لأنه لا نبت فيها واستكن: استتر، والصُّواب: جمع الصُّوبة، وهي بيضة القمل أو صفاره، وقد صيَّب رأسه كثر صُوبه.
- (٥٨) لم يُرم عنها غرائها: شبه سواد شعره بالغباب، أراد أن شعره كان أسود دائما.
- (٥٩) المفضليات: ص ١٠٢، وطبقات فحول الشعراء: ٣٣/١، مع بعض الاختلاف في الرواية.
- (٦٠) الديوان (الطرائف الأدبية): ص ١١ - ١٢.
- (٦١) القَزَع: جمع القَزعة، قطع من السحاب صغار متفرقة، وأن يُخلق رأس الصبي وتترك مواضع منه متفرقة تشبها بقَزَع السحاب. والشَّواة: جلدة الرأس.
- (٦٢) إلال: جمع آله، وهي الحربة. والمُدَى: جمع مِدْيَة، وهي الشفرة، والضمير يعود على الدهر. واختلى: جز، يقال اختلى النبات إذا جزه، والضمير يعود على القُوى. والشَّفار: جمع الشَّفرة.
- (٦٣) الظَّلَف: الهدر، وكذلك الجُّبار.
- (٦٤) الديوان: ص ١٧١.
- (٦٥) يقول: قد بلي بدني، ونفسي في جدتها وعزمتها كالسيف.
- (٦٦) الديوان: ص ١١٤.
- (٦٧) الهدَج: تدارك الخطو. والرَّأَل: فرخ النعام.
- (٦٨) الديوان: ص ١٥.
- (٦٩) الرَّجيم: المرجوم، ورجمه: رماه بالحجارة، وقتله، أولعنه وطرده. وريب المنون: صروف الدهر وتقلبه ومصائبه.
- (٧٠) الديوان: ص ٢٢٧، وانظر له شعرا آخر في المعنى نفسه: ص ١٥ - ١٦.
- (٧١) ووص ٢٧، ووص ٤٥.
- (٧٢) بُرْقَة أَتَقَد: موضع.
- (٧٣) أتبع ظلها: يقال: «هو يتبع ظلَّ لئنه، ويساري ظلَّ رأسه» إذا اختال. والدَّد والدَّدن: اللهو اللعب. وقعود غَوَاية: أي قاعدا في الغواية.

- (٧٣) يلويني: يَمُطِلْتِي. واجتري: أنقاض. وَقَدْ: صرغ، أراد أن النساء كنَّ يطلن حقه نهاراً، ولا يقبلن أداءه إلا ليلاً بعد نوم الناس.
- (٧٤) الديوان: ص ٣١، ونسبت الأبيات إلى معاوية بن مالك في المفضليات: ص ٦٩٧.
- (٧٥) الضيَّاب: جمع الضَّائب.
- (٧٦) الكعاب: الجارية التي كَعَبَ ثديها ونَهَدَ.
- (٧٧) الديوان: ص ٤٥.
- (٧٨) الغُروب: جمع غَرْب، وهو الذَّلُو العظيمة. والوكيف: انهيار الدَّمع.
- (٧٩) الجفار: موضع بالبصرة.
- (٨٠) الآلة: الحالة والشدة والتَّجار: قصد بهم نهار الخمر.
- (٨١) المُسْتَرَاة: المختارة، من استريت الشيء إذا اخترت سَرَاتِه وأحسنه.
- (٨٢) الديوان: ص ١٢٤ - ١٣٥.
- (٨٣) المُعَادِل: جمع المُعَدِّل، وهو كل ما عُدِّل فيه عن القصد.
- (٨٤) شرح أشعار الهذليين: ٣/ ١٠٧٠ - ١٠٨٠.
- (٨٥) اخْذَب: جمع الأخدب، وهو الأهوج الذي يركب رأسه فلا يرده شيء. وَلِذَات: جمع لِدَّة، وهو المقارب لك في السن. والوَخْش: النذل من كل شيء. والشَّحْل: الضعاف، من سَحَّل الرجل إذا عابه وضعفه.
- (٨٦) المُغْشَم: الذي يغشم الناس ويظلمهم والمُهَبَّل: الكثير اللحم.
- (٨٧) تُغَلُّ: تُعَل. ومُقَلِّل: أي بكل سيف جعلت له قُلَّة.
- (٨٨) رَبَّاتٌ: أي كنت ربيثة لهم وحَمَّ الظهيرة: معظمتها.
- (٨٩) مُشْرِفَةُ القُدَّال: أراد هضبة لها عتق مشرف. المُجَدِّل: القصر.
- (٩٠) الكال: الرقيب. الشَّاك الأعزل: نجم في السماء وهما يسهاكان. أي ظل ساهرا حتى ظهر الشَّاك ونام الرقيبان.
- (٩١) السَّنَاخَة: الوسخ والريح المتتنة، أي دخلت يشا طيب الريح. المُعُول: المُدْبَل عليه، وعَوَّلْتُ عليه: أدللت عليه.
- (٩٢) انظر شعره في الأغاني: ٢٢/ ١٠٤.
- (٩٣) انظر ديوانه: ص ٨٣.

- (٩٤) طبقات فحول الشعراء: ٣٦/١ - ٣٧، وورد فيه أن زهيراً كان قديماً شريفاً اجتمعت عليه قُصاة كلها، ووردت الأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية في المعمرين والوصايا: ص ٣٣. كما وردت الأبيات ما عدا السادس والسابع مع بعض الاختلاف في الرواية في الأغاني: ٢٢/١٩.
- (٩٥) التحية: الملك أو البقاء.
- (٩٦) السلاف: جمع سالف، وهو المتقدم في السير. وطبيعة: رأس جبل منيع كان به منزل زهير بن جناب، وعليه رفعت النار يوم «خزازی».
- (٩٧) البازل: الذي استكمل الثامنة من الإبل وطعن في التاسعة. والوجناء: الناقة الغليظة الصلبة. والولية: البرذعة التي توضع على متن الناقة.
- (٩٨) الطرфан: أراد بهما العنق ورءوس الوركين. ولم يغيسز: لم يظَّلَع في مشيته. والسفلية: إبرة من العظم في وظيف الفرس.
- (٩٩) القنان: جبل لبني أسد. والفقية: موضع. وقيل أراد بحُمُر القنان أسرى الحرب.
- (١٠٠) الديوان: ص ٤٤ - ٤٥.
- (١٠١) عذار اللجام: ما تدلى منه على وجه الفرس.
- (١٠٢) البر: السلاح. والكهام: من الرجال الثقيل المسن الذي لا غناء عنده.
- (١٠٣) الديوان: ص ٣٣ - ٣٤.
- (١٠٤) المناغاة: المغازلة والمكاملة. وأراد أن القمر دانه بضوئه فلم يره لضعف بصره، فأحل السمع محل البصر، فظن القمر يحدّثه، وعجز عن كلا الأمرين.
- (١٠٥) التراجم: جمع البرجعة، وهي المفصل الظاهر أو الباطن من الأصابع. ولعله أراد أنه لم يعد يستطيع أن ينهض مودعا من يتزل به من الناس.
- (١٠٦) المعمرين والوصايا: ص ٥٣.
- (١٠٧) المصدر نفسه: ص ٩٩، وورد فيه أن الحارث بن التروأم عاش دهرًا في الجاهلية ثم أدرك الإسلام، وهو لا يعقل. ووردت الأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية والاكتفاء بنسبتها إلى رجل من يشكر، في الاختيارين: ص ١٣٨.
- (١٠٨) يُشاف: يُزَيِّن، ويُصنع، ويُجَلَى. والمقرَّب: المتعصب الشيط. واستزمر: تصاغر وتقلص.
- (١٠٩) الأغاني: ٢٥/١٠ - ٢٦.

- (١١٠) الدَّرْبَةُ: الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها. والقُوَّةُ: مكان السوتر من السهم.
- (١١١) المُنْصَفُ: الوسط.
- (١١٢) الحَرْبُ: ذكر الحُبَارَى، وهو طائر. والحَقِيرُ: البارد، ولا معنى لها هنا، وفي الحاشية من ص ٢٦ ذكر المحقق أنها كانت «قَصِير» من قولهم: ليث هصور.
- (١١٣) المِرَّةُ: قوة الحَلْقِي وشدته، وجمعها مِرَر.
- (١١٤) انظر شعره في المعمرين والوصايا: ص ٣٠.
- (١١٥) انظر شعره في المصدر نفسه: ص ٦٥.
- (١١٦) طبقات فحول الشعراء: ٣٤ / ١، وورد البيتان الأول والثاني في معجم الشعراء: ص ٢٣، وجاء فيه أن المستوغر اسمه عمرو بن ربيعة من تميم، وهو أحد المعمرين، ومات في صدر الإسلام.
- (١١٧) ندايا: أراد: نداء فقلب الهمزة ياء.
- (١١٨) العظايا: جمع عظاية، وهي السُّحْلِيَّة، وأراد أن بني بنيه يفعلون به فعل الحر في احتراش العظاء وصيدها، ويأتيها من هنا وهنا، ويمسكها مرة ويرسلها أخرى.
- (١١٩) الذَّيْفَانُ: السم النافع للقاتل. ملأيا: ملأه.
- (١٢٠) ذيل الأمالي والنوادر: ص ٢١٥.
- (١٢١) المعمرُونَ والوصايا: ص ٩٤، والأغاني: ٢٥ / ١٠.
- (١٢٢) شرح القصائد العشر: ص ١٩٧.
- (١٢٣) الديوان: ص ٣٥.
- (١٢٤) المعاني الكبير: ١٢١٣ / ٣، والمعمرُونَ والوصايا: ص ٥٣، مع بعض الاختلاف في رواية البيتين.
- (١٢٥) مُعْتَنِرٌ: يقال: اعتنر الرجل، إذا وقف ناحية. وقبل: الْمُعْتَنِرُ هو المشوكن على غترته، وهي العكازة.
- (١٢٦) المعمرُونَ والوصايا: ص ٣٤، والأغاني: ١٥ / ١٩ وأمالي المرتضى: ٢٤٠ / ١.
- (١٢٧) الجِدْج: مركب للنساء كالمحفة، والجِدَاجَة، لغة فيه.
- (١٢٨) طبقات فحول الشعراء: ٣٨ / ١، والمعمرُونَ والوصايا: ص ٣٣.
- (١٢٩) الشيخ البَجَالُ: أراد: شيخا بَجَالًا، والبَجَالُ والبَجَلُ: السيد له هيئة وسن.

ويُهادى: يُهدى، أي يحقن به ويسندونه حتى يثوب إلى مشواه.

(١٣٠) الديوان: ص ١٧١.

(١٣١) المؤلف والمختلف: ص ٢١٠ — ٢١١، وورد فيه أن الشاعر جاهلي أدرك الإسلام.

(١٣٢) المفضليات: ص ٨٣٨ — ٨٣٩.

(١٣٣) استرقّخ: تشمّم. القنّار: ربيع الشواء.

(١٣٤) أفعل فيه اليسار: أي أياسر فيه ولا أعاسر.

(١٣٥) الأصمعيات: ص ٦٤.

(١٣٦) الديوان: ص ٥٨ — ٦٤.

(١٣٧) نهاية الأرب: ٦/ ٧٤.

المصادر والمراجع

- الاختياران: للأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ)، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط. دمشق ١٩٧٤م.
- أساس البلاغة: للزغشري (ت ٥٣٨هـ) ط. بيروت ١٩٦٠م.
- الاستيقاق: لابن دريد (ت ٣٢١هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، ط. القاهرة، ١٩٥٨م.
- الأصمعيات: للأصمعي (ت ٢١٦هـ)، تحقيق محمد أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ط. مصر ١٩٦٧م.
- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، من ١ — ١٣، ط. دار الكتب المصرية من ١٩٢٧م حتى ١٩٥٠م. ومن ١٧ — ٢٤، ط. الهيئة العامة للكتاب من ١٩٧٠م حتى ١٩٧٤م.

- الأمالي : لأبي علي القالي (ت ٣٥٦هـ)، ط . دار الكتب المصرية ١٩٢٦م .
- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) : للشيخ المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط . بيروت ١٩٦٧م .
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) : للطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط . القاهرة ١٩٦٠م .
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) : لابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ط . مصر، بلا تاريخ .
- الحاشية : لأبي تمام، شرح المروزي (ت ٤٢١)، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط . القاهرة ١٩٥١م .
- الحاشية : لأبي تمام، شرح التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، ط . بولاق ١٢٩٦هـ .
- خزائن الأدب : للبغدادي، أربعة أجزاء، تحقيق عبد السلام هارون، ط . القاهرة ١٩٦٧م .
- ديوان الأعشى الكبير: تحقيق محمد محمد حسين، ط . القاهرة ١٩٦٠م .
- ديوان أوس بن حجر : تحقيق محمد يوسف نجم، ط . بيروت ١٩٦٠م .
- ديوان بشر بن أبي خازم : تحقيق عزة حسن، ط دمشق ١٩٧٢م .
- ديوان نعيم بن أبي بن مقبل : تحقيق عزة حسن، ط . دمشق ١٩٦٢م .
- ديوان حاتم الطائي : ط بيروت ١٩٦٣م .
- ديوان حسان بن ثابت : تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، ط . مصر ١٩٢٩م .
- ديوان ذي الإصبع العدواني : تحقيق العدواني والدليمي، ط . الموصل ١٩٧٣م .
- ديوان زهير بن أبي سلمى : شرح ثعلب (ت ٢٩١هـ)، ط . القاهرة ١٩٦٤م .
- ديوان سلامة بن جندل : تحقيق فخر الدين قباوة، ط . حلب ١٩٦٨م .
- ديوان عبيد بن الأبرص : تحقيق د. حسين نصار، ط . مصر ١٩٥٧م .
- ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق محمد جبار المعبيد، ط . بغداد ١٩٦٥م .
- ديوان عمرو بن الورد : شرح ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ)، تحقيق عبد المعين الملوحي، ط . دمشق ١٩٦٦م .
- ديوان علقمة الفحل : شرح الأعلم الشتمري (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط . حلب ١٩٦٩م .

- ديوان عمرو بن قميئة: د. حسن كامل الصيرفي، ط. معهد المخطوطات العربية ١٩٦٥م.
- ديوان قيس بن الخطيم: تحقيق د. ناصر الدين الأسد، ط. القاهرة ١٩٦٢م.
- ديوان يزيد بن ربيعة: تحقيق د. إحسان عباس، ط. الكويت ١٩٦٢م.
- ديوان زكاة/سابعة الذبياني: تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط. مصر ١٩٨٥م.
- ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي، دار الكتب المصرية ١٩٢٦م.
- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: للبكري (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط. القاهرة ١٩٣٦م.
- السيرة النبوية: لابن هشام (ت ٢١٨هـ)، تحقيق السقا والأبياري والشليبي، ط. مصر ١٩٥٥م.
- شرح أشعار الهذليين: صنعة السكري (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط. القاهرة، بلا تاريخ.
- شرح القصائد العشر: للتبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، حلب ١٩٧٣م.
- الشعر والشعراء: لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط. القاهرة ١٩٦٦م.
- طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجهمي (ت ٢٣١هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، ط. القاهرة ١٩٧٤م.
- الطرائف الأدبية: اختيار وتحقيق عبد العزيز الميمني، ط. القاهرة ١٩٤٧م.
- القاموس المحيط: للفيروز آبادي (ت ٨١٦هـ)، ط. مصر ١٩٥٢م.
- قصائد جاهلية نادرة: مختارة من مخطوط «منتهى الطلب من أشعار العرب» لابن مبارك، تحقيق د. يحيى الجبوري، ط. بيروت ١٩٨٢م.
- لسان العرب: لابن منظور (ت ٧١١هـ)، ط. بولاق ١٣٠٠هـ.
- المؤلف والمختلف: للأمدى (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط. القاهرة ١٩٦١م.
- مجالس ثعلب: لأبي العباس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، ط. مصر ١٩٤٨م.
- المعاني الكبير في أبيات المعاني: لابن قتيبة، ط. حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٤٩م.
- معجم البلدان: لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، ط. بيروت ١٩٥٥م.

- معجم الشعراء : للمرزباني (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط. مصر ١٩٦٠م.
- المعمرن والوصايا : للسجستاني (ت ٢٥٠هـ)، تحقيق عبد المتعم عامر، ط. مصر ١٩٦١م.
- المفضليات : للمفضل الضبي (ت ١٧٨هـ)، شرح الأنباري (ت ٣٠٤هـ)، ط. بيروت ١٩٢٠م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب : للنويري (ت ٧٣٣هـ)، ط. دار الكتب المصرية ١٩٢٣م.
- النوادر في اللغة : لأبي زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ)، ط. بيروت ١٩٦٧م.

